"Abbasid period as reflected in "Hadith–Al–Arbia" of Taha Hussain: An analytical Study"

Dissertation Submitted to the Jawaharlal Nehru University in

Partial fulfillment of the requirements for the awards

Of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

BY

MOHD UMAR

Under the supervision of

Dr. MD. QUTBUDDIN

Centre of Arabic and African Studies

School of language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi-110067

2012

" دراسة تحليلية لكتاب "حديث الأربعاء" لطه حسين في ضوء تصويره العصر العباسي"

“Abbasid period as reflected in “Hadith –Al –Arbia” of Taha Hussain: An analytical Study”

بحث جامعي لنيل شهادة ما قبل الدكتوراة

الباحث

محمدعمر

تحت إشراف

الدكتور محمد قطب الدين

مركز دراسات اللغة العربية و الإفريقية

كلية دراسات اللغة و الأدب و الثقافة

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي- ١١٠٠٦٧

٢٠١٢

مركز الدراسات العربية و الإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - **110067**
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax: 91 11-2671 7525

Declaration

July 19, 2012

I declare that the material in this dissertation entitled " **Abbasid period as reflected in "Hadith–Al-Arbia" of Taha Hussain: An analytical study"** submitted by me is my original work and has not been previously submitted for any degree to this University or elsewhere.

26/7/12
Mohd Umar
(Research scholar)

Dr. Md. Qutbuddin
(Supervisor)
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. A. Basheer Ahmad
(Chairperson)
Centre of Arabic & African Studies
School of Languages
Jawaharlal Nehru University
New Delhi--110067.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مما لا شك فيه أن لمكارم الأخلاق و الحياة الروحية في أدب العرب شأنا كبيرا و ذلك أن مكارم الأخلاق والحياة الروحية نفسها ظاهرة اجتماعية بالغة العمق في المجتمع الإسلامي، يقوم عليها صرح الإسلام المتين، بيد أن الدراسة الحديثة أهلمت هذا الموضوع كما ينعكس في شعر كل عصر من العصور الإسلامية، ولم يجد من اهتمام بالغ كما يستحقه، وحاول بعض الكتاب والباحثين المستشرقين تشويه وجوه الإسلام النيرة في كل عصر و مصر، و حاولوا إبراز الوجوه الكاذبة غير الصادقة و وصف زهرة العصور الإسلامية بعصر الشك و النفاق و اللهو و المجون، و موضوع هذه الدراسة " دراسة تحليلية لكتاب "حديث الأربعاء" لطه حسين في ضوء تصويره العصر العباسي" غرضها قبل كل شيئ أن تكشف الوجوه الصادقة للعصر العباسي و منزلة مكارم الأخلاق والحياة الروحية في أدب العصر العباسي و أن يتجلى سمو هذا الأدب لكي يوضع في المكان اللائق به، بعد أن أنكره بعض الكتاب وحاربوه.

وموضوع هذا البحث قد عاش في فترة معينة من تاريخ الدولة الإسلامية تعد من أزهى عصور التاريخ الإسلامي، هذه الفترة كانت زاخرة بالأدب والزهد و التصوف في بيئة من أخصب بلاد العالم الإسلامي رقية و ذوقا و أدبا و ثقافة و تمدنا و حضارة، هذه الفترة كانت حافلة بجلائل الأعمال زاخرة بعظماء الرجال

الذين نحس بحاجتنا إلى استذكار سيرهم العطرة بين فينة و أخرى لنهتدي بهديهم و نقتفي أثرهم و نتخذ منهم قدوة طيبة في مجالات العلم و الخلق و العمل.

و لكن حينما نطالع العصر العباسي في كتاب "حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين نكاد نشعر أننا نفقد ثقتنا في تاريخ الأمة الإسلامية المجيدة والشخصيات العظيمة في العصر العباسي، نشعر ضياع الأخلاق، و المثل العليا، وضياع القيم الروحية والمعنوية، و نسمع أصوات الأغاني والكؤوس المتضاربة في حانات الخمر و محافل الرقص، و يجعلنا هذا الكتاب نشك في كل شئ، في سلوك الصحابة، في وجود بعض الشعراء العذريين، و وجود إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، و لا نعرف أشخاصا في العصر العباسي من خلال دراسة هذا الكتاب إلا من أمثال أبي نواس، و والبة بن الحباب و الضحاك و الرعية على شاكلتهم و تمشي مشيتهم، و ذلك لأن الدكتور طه حسين اختار منهج الشك و هو منهج سبق إليه ديكارت، لكنه تعصب في اختيار هذا المنهج، شك في وجود الخير و لم يشك في وجود الشر، شك في وجود زهديات أبي نواس و لم يشك في مجون أبي نواس، شك في فكر ابن خلدون: و ذلك أن الرشيد كان يحج بيت الله سنة و يغزو سنة أخرى وهكذا أمضى أيامه، و هو يفند رأي ابن خلدون و يتهاتف على رأي الأصفهاني، وهو يجعل أبا نواس يمثل العصر العباسي تمثيلا صادقا، ولكن في نفس الوقت لا يجعل الفقهاء و المحدثين و العلماء من أمثال الإمام أحمد بن حنبل، و الشافعي و الأوزاعي، و ابن السماك، والفضيل بن

عياض، و عبد الله بن المبارك و الشعراء من أمثال أبي العتاهية، لا يمثلون العصر العباسي في شئ، هو يأخذ ببنان القارئ إلى محافل الرقص و حانات الخمر يرقص و يتعربد فيها أبو نواس و الضحاك، و لا يذهب به إلى حلقات درس القرآن و الحديث يعلو فيها كلمة "لا إله إلا الله"، وهو يحاول أن يقيس تاريخ العصر العباسي على تاريخ الأمة اليونانية و يزنه في كفتها حينما يقول : إن أغسطس يعبد ربه، و يسجد له، وذلك لا يمنعه أن يلهو و يشرب و كذلك كان الخلفاء العباسيون.

و لكن حينما نقرأ الكتب التاريخية الأخرى وكتب المعاصرين له من أمثال مصطفى صادق الرافعي، و أنور الجندي، و رفيق العظم، و عبد الرحمان شكري، نجد الحقائق التاريخية تختلف تماما عن الحقائق التي حشدها الدكتور طه حسين في كتابه " حديث الأربعاء" و لكشف هذه الحقائق جعلت هذه الرسالة في ثلاثة أبواب و تحت كل باب ثلاثة فصول، الباب الأول يشتمل على حياة الدكتور طه حسين و دراسته، و خدماته الأدبية و الصحفية و المناصب التي تقلدها في حياته و الجائزة التي تُوج بها، و الباب الثاني يشتمل على صلة الدكتور طه حسين الوطيدة بالمستشرقين و ولاءه لهم، و كيف خدم أغراضهم في مصر من خلال مقالاته و كتبه طول حياته، وكيف يجل آراء المستشرقين، و يعتبرهم منبع الأفكار، ومرجعا للعلوم الجمة، و يجعل كلمتهم هي العليا كأنهم ينطقون من السماء، و أما الآخرون لا يحملون في رأسهم المخ، و كذلك ذكرت

في هذا الباب منهج الدكتور طه حسين و هو منهج الشك، و ذلك عندما يتناول الباحث الموضوع الأدبي و التاريخي، عليه أن يتجرد عن كل ما في ذهنه من قبل، و عرضت في هذا الباب أسلوب الدكتور طه حسين في ضوء الكتاب الآخرين، و كذلك بعض اعراضاته حول الأدب العربي و الإسلام.

و في الباب الثالث وهولب هذه الأطروحة و خلاصة هذا البحث قدمت فيها جماعة كبيرة من طائفة الزهاد و النساك و العلماء ونصائحهم الغالية وأشعارهم المليئة بذكر الموت و العقبى و ما يكون فيها من الحساب و الجزاء و العقاب و المثول أمام رب العالمين، و أثرهم في المجتمع الإسلامي و البيئة المسلمة، وتهاتف الناس عليهم و منزلتهم السامية عند الخلفاء العباسيين و وعظهم للخلفاء العباسيين بين فينة و أخرى، في طليعتهم عمرو بن عبيد، و صالح بن عبد الجليل، وابن سماك، و الأوزاعي، و الفضيل بن عياض، و الإمام أحمد بن حنبل، و الإمام الشافعي، و عبد الله بن المبارك و غيرهم كثير.

حينما أصدر الدكتور طه حسين حكما على العصر العباسي بأنه عصر الشك و المجون و عصر الإباحية و الخلاعة مستعينا بأشعار أبي نواس والذين نسجوا على غراره و منواله، لعله لم يأخذ هؤلاء الزهاد و النساك و العلماء الربانيين في الاعتبار أو لبس منظار التعصب ألبسه إخوانه المستشرقون لأن ذلك لا يخدم أغراض سيده، يترك الدكتور طه حسين الأسئلة بدون إجابة عليها، و هو لماذا

قُتل أبو نواس؟ و لماذا ضُرب بشار و حُبس إذا كانت الرعية تسلك مسلكهم و تمشي مشيتهم؟، و ما الذي أجبر الخلفاء أن يظهروا مظهرين إذا كانت الرعية على ملتهم و دينهم؟ معنى ذلك أن الرعية كانت على الصلاح و الخير و البر، و كانت صورة العصر العباسي على العكس الذي قدمها الدكتور طه حسين.

أتشرف بتقديم هذه الأوراق لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراة، وفي الواقع هي ثمرة دراستي المتواضعة التي استغرقت سنة كاملة قضيتها في دراسة "حديث الأربعاء" بأجزائه الثلاثة للدكتور طه حسين و تصفحت الكتب الأخرى التي تتعلق بالعصر العباسي تحت توجيهات أستاذي و مشرفي الدكتور محمد قطب الدين، و قدمت بحثي هذا بعد الدراسة الاستعراضية و التحليلية لكتاب "حديث الأربعاء". و مما لا مراء فيه أن هذا الموضوع الذي تناولته للبحث هو موضوع هام جدا، ونظرا لأهميته كنت آمل أن المواد المتعلقة بهذا الموضوع عسى أن تكون متواجدة في المكتبات الهندية إلا أن آمالي خابت إذا لم أجد مصادر و مراجع متواجدة بصورة وافية، و من هنا نشأت لي مشاكل و صعوبات في إنجاز هذا البحث، ولم أستطع أن أؤدي حق البحث كما ينبغي، و مع هذا كله قد أتعبت نفسي و بذلت قصارى جهدي في عرضه في أحسن أسلوب مستعينا بالمصادر و المراجع المتواجدة في المكتبات العديدة، و نجحت إلى حد ما في تحقيق غايتي المنشودة في صورة هذه الرسالة بمشيئة الله.

و قبل الختام يتحتم عليَ من تقديم عواطف الشكر والامتنان إلى كافة الأساتذة بصفة عامة، لأنهم مدوا إليَ يد العون أثناء إعداد هذا البحث، وأستاذي و مشرفي محمد قطب الدين بصفة خاصة يستحق مني جزيل الشكر لما أسدى إليَ من توجيهات غالية و نصائح قيمة ولم يبخل في إعطاء مشورات قيمة و إتاحة فرصة سعيدة، لو لم يكن تشجيعه و تحفيزه و مساعدته الغالية لما أمكن لي أن أجدف هذه السفينة إلى الساحل.

أقدم هذه الرسالة كبضاعة متواضعة طالبا العفو و الصفح من الأخطاء و الزلات و قد تكون عند بعض الناس كثيرة، و أخيرا أسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن اجتباه و أرشده إلى الحق و هداه، وهو نعم المولى و نعم النصير.

مـحمـد عـمـر

20 يوليو 2012

الباب الأول

طه حسين حياته و أعماله

الفصل الأول: حياته و دراسته

الفصل الثاني: خدماته الأدبية و الصحفية

الفصل الثالث: المناصب و جائزة النيل

الفصل الأول

مولده و حياته العائلية

ولد طه حسين في عام 1889 م لأب مصري من قرية في صعيد مصر على مقربة من مدينة "مغاغة" الواقعة على الجانب الأيسر للنيل و كان أبوه موظفا صغيرا في شركة زراعية من شركات السكر يحصل على راتب زهيد لم يكن يكفي لحاجة العائلة الكبيرة و أنجب أبناء كثيرين، و كان طه حسين سابعهم، و لم يلبث أن فقد بصره في الثالثة من عمره و لكن منحه ربه – و هو اللطيف الخبير- ذكاء حادا و ذاكرة قوية و حاسة دقيقة لا تكاد تحصي و تسجل كل شيئ، و كان قد رزق همة عالية و نفسا متحركة و شوقا ملتهبا و رغبة ملحة للعلم و الثقافة.

خلال حياته المديدة-وهو عاش ثمانين عاما- و عقب وفاته، كُتب عن الدكتور طه حسين و عن أفكاره و أطروحاته و موافقته الكثير، جاء في إحدى ملحقات " النهار" من سنة 1973م على لسان الدكتور صلاح الدين المنجد كلام صريح و موجز في شخصية الدكتور طه حسين فهو يقول : "عملاق فذ، ملأ عصره بوجوده، و هزه بنزواته و آرائه و خصوماته، كان عجيبا في كل شيئ، لأنه كان

يكره الاعتدال والقصد، عجيب في عماه الذي أعطاه الذكاء المتوقد، و في سخريته من القديم و حبه الخروج عليه، و في جرأته المتهورة أيام شبابه" [1].

يقص الدكتور طه حسين علينا في المجلد الأول من كتابه " الأيام" كيف نشأ هذا الطفل الضرير وسط بيئته المتوسطة و يتغلب تدريجا على صورة العالم الخارجي من حوله يرعاه حنان والديه وسط دائرة كبيرة من الإخوة و الأخوات و يرسم وصفا بارعا مشخصا آلام أبويه لموت أخت له و ما تكاد تفيق الأسرة من الفزع عليها حتى فاجأت بوفاة أخ له اختطفه من بينهم براثن " الكوليرا".

قررت الجامعة الأهلية إرسال طه حسين في بعثة إلى فرنسا، فنزل بمونبليه، أثناء ذلك تعرف على زوجته الفرنسية. و كان ذلك الثاني عشر مايو/آيار1915م، و هي كانت مصحوبة بأمها و لم تكن قد تحدثت مطلقا إلى أعمى. إثر ذلك اللقاء الأول، أخذت تكرر من زيارتها له بالخصوص لما ذهب إلى باريس فى العام الثاني لمتابعة دراسته. ذات يوم صرحت برغبتها في الزواج منه فصعقت العائلة و غضبت و أخذ الجميع يصيحون فيها غاضبين عليها. كيف ؟ من أجنبي؟ و فوق ذلك كله مسلم؟ غير أن الفتاة قد صممت و اختارت، و لم تكن في التنازل عن اختيارها و إرادتها. جاء لها العون من عم لها كان قسا فقد قال لها بعد أن تنزه مع طه حسين و أخذ في الحوار معه مدة ساعتين في حقول" البرمينه" : "إن بمقدورك أن تنفذي ما عزمت عليه. و لا

[1]- الجامع فى تاريخ الأدب العربى- الأدب الحديث- حنا الفاخورى ص 338، الطبعة الأولى عام 1986

تخافي بصحبة هذا الرجل. يستطيع هذا الرجل أن يدوم بالحوار ما استطاع إلى ذلك من سبيل،إنه سيتجاوزك باستمرار". فيما بعد قد كشفت السيدة سوزان التي كتبت سيرته الذاتية باسم "معك" أن عمها القس قد أصاب في قوله. لذا سوف تظل تكون له إعجابا كبيرا طوال حياتها. أما طه حسين فقد كتبت تقول عند وفاته : " كان مثلنا و دليلنا و محل إعجابنا، و كان يجعل كل شيئ جميلا، و كان يجعل كل شيئ نبيلا. لقد كانت الحياة تغدو فجأة حياة أرفع و أسعد و أخصب"[2]. عندما رحل الدكتور طه حسين عن العالم الفاني إلى العالم السرمدي، لبى داعي ربه، السيدة سوزان كتبت تقول: " ذراعي لن تمسك بذراعك أبدا، و يداي تبدو لي بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق في اليأس، أريد عبر عيني المخضبتين بالدموع حيث يقاس مدى الحب، و أما الهاوية المظلمة حيث يتأرجح كل شيئ، أريد، أريد أن أرى تحت جفنيك اللذين بقيا معلقين، ابتسامتك المنخفظة ، ابتسامتك المهملة ، الباسلة، أريد أن أرى من جديد ابتسمامتك الرائعة...." [3]

فيما بعد قد أنجبت هذه الزوجة الكريمة طفلين: ولد يدعى "مؤنس" و بنت تدعى "أمينة". أصبحت أمينة حرم الدكتور محمد حسن الزيات، و الدكتور مؤنس كان يعمل في منظمة الأونسكو بباريس.

---

[2]- العرب الثقافي الخميس 27-9-2007، صـ9

[3]- نفس المصدر، صـ9

و بعد زواجهما بقليل كتب طه حسين إلى زوجته يقول:" بدونك أشعر أني أعمى حقا. أما و أنا معك، فأني أتوصل إلى الشعور بكل شيئ، و إلى أن أمتزج بكل الأشياء تحيط بي"[4]. و قد تبدو من الرسائل التى كان يوجهها طه حسين من حين إلى آخر إلي زوجته الحبيبة أنهما كانا على مودة شديدة و صلة وطيدة و غرام كبير. نجده قد وجد كل ما كان يفقده، و قد أفاض في وصفها قائلا: "إنها بدلته من البؤس نعيما ومن اليأس أملا، ومن الفقر غني، ومن الشقاء سعادة و صفوا"[5]. وعلى سبيل المثال يقول في إحدي رسائله إليها يتحدث بدقة عن تفاصيل حياته اليومية : "و لكن كيف أعمل بدون صوتك الذي يشجعني و ينصحني، بدون حضورك الذي يقويني؟"[6] . "و لمن أستطيع أن أبوح بما في نفسي بحرية" [7]. و في نفس الرسالة يضيف قائلا " لقد استطعت على ظلمة لا تطاق. و كان لا بد أن أكتب لك لكي تتبدد هذه الظلمة. أ ترين كيف أنك ضيائي حاضرة أم غائبة؟ ". في رسالة يكتب لها قائلا: " كان أفلاطون يفكر أننا إذا نتحاب فإننا لا نفعل سوى أن نعيد ما أسده عارض ما. عندما تنفصل نفسان عن بعضيهما، تبحث كل منهما عن الأخرى، و عندما يتواجدان و يتعارفان. فإنهما لا يعودان كائنين و إنما كائن واحد و إنني أومن بذلك تماما"[8].

---

[4]- العرب الثقافي ، صـ9

[5]- الأدب العربى المعاصر فى مصر- شوقى ضيف- مكتبة الدراسات الأدبية، الطبعة العاشرة- صـــ279

[6]- العرب الثقافي، صـ9

[7]- نفس المصدر، صـ9

[8]- نفس المصدر صـ9

الجدير بالذكر أن السيدة سوزان طه عاشت في مصر خمسين سنة و لم تستطع أن ينشرح صدرها لطوابع مصرالإسلامية، بل على العكس من ذلك كان بيتها سجنا رهيبا للغة الفرنسية، إنها ساعدت طه حسين على تعلم اللغة الفرنسية لكننا لا ندري هل هو ساعدها على تعلم اللغة العربية خلال خمسين سنة طويلة أو جعل محاولة نحو هذا الجانب.

إنها استطاعت أن تبني ذلك الحاجز الخطير بينها و بين مصر و تقاليدها و قيمها العربية الإسلامية و بينها. فظلت حتى آخر أيامها لا تكتب و لا تتكلم و لا تعيش إلا في جو فرنسي و ما في حياتها شيئ أبدا يوحي بالروح العربية أو الإسلامية.

طه حسين و دراساته الواسعة

إن العمى الذي لصق بحياة طه حسين جعل طريقه محددا الذي يختاره في حياته، و هو طريق التعليم و التدريس الديني، نراه بكُتاب عادة كالأبناء المصريين الآخرين، و حفظ القرآن الكريم ظهرا عن قلبه، لما أتم حفظه شرع في حفظ " مجموع المتون" و دراسة بعض الكتب و الأشعار القديمة استعدادا لدخول الأزهر و كان قد سبقه إليه أخ أكبر منه اصطحب معه و هو في الثالثة عشرة من عمره. و قد لقي على يد أخيه جفاء ممضا يجري مرارته في قلمه إذ يكتب سيرته الذاتية " الأيام" و صور لنا في أثناء ذلك المصائب التي واجهته و الإهمال الذي عاناه من أخيه. نجده يقفو على خطى أخيه إلى الأزهر و دخله عام

1902م و كان معمما أزهريا كباقي الأزهريين. زاول الدراسات القديمة فيه إلى جانب عمود من أعمدته. و يصغي سعمه إلى هذا الشيخ و ذاك كأنما يحمل في ذهنه آلة تصويرية دقيقة. وهو يتردد بهذه الآلة التصويرية بين حلقات الشيوخ المختلفين يلتقط و يدخر و يظل في ذلك ثماني سنوات أمضاها بين الضجرو الملل من حياة الأزهر التي يجدها راكدة جامدة حينئذ أشد ما يكون الركود و الضيق. في عام 1912م فتحت الجامعة المصرية "جامعة القاهرة" الحالية لدراسات المدنية و نال فيها شهادة دكتوراه الأولى في الآداب عام 1914م على رسالة " تجديد ذكرى أبي العلاء". لم يلبث هذا الفتى الضرير حتى احتل مكانا أماميا سياسيا ثوريا مستقبليا في الأدب و الفكر العربيين. يختلف إلى الجامعة الأهلية الجديدة و يتتلمذ على أساتذتها المصريين الأوربيين الكبار. و كان يكره الأزهر و يثور على تقاليده و تخلفه و ضيق آفاقه. إنه يقدم صورة دقيقة لحياة الأزهري الضرير من أمثاله في أوائل هذا القرن و ما كان يشقى في غدوه و رواحه و يقظته و نومه. يتحدث في سيرته الذاتية " الأيام" عن نفسه إلى إبنته "أمينة" مقارنا بين حاضرها الرغد و ماضيه القلق: " عرفته في الثالثة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر، إن كان في ذلك الوقت لصبي جد و عمل . و كان نحيفا شاحب اللون مهمل الزي أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى. تقتحمه العين اقتحاما في عبائته القذرة و طاقيته القذرة التي استحال بياضها إلى سواد قاتم، و في هذا القميص الذي يبين أثناء عبائته و قد

اتخذ ألوانا مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام، و في نعليه الباليتين المرقعتين . تقتحمه العين في هذا كله، لكنه تبتسم له حين تراه، على ما هو عليه من حال رثة و بصر مكفوف، واضح الجبين، مبتسم الثغر، مسرعا مع قائده إلى الأزهر، لا تختلف خطاه، ولا يتردد في مشيته، و لا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين، تقتحمه العين ولكنها تبتسم له، و يلحظه في شيئ من الرفق، حين تراه في حلقة الدرس، مصغيا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاما، مبتسما مع ذلك لا متألما و لا متبرما، و لا مظهرا ميلا إلى لهو بينما الصبيان حوله يلهون أو يشرئبون إلى اللهو. عرفته يا إبنتي في هذا الطور، و كم أحب لو تعرفينه كما عرفته، إذن تقدرين ما بينك و بينه من فرق. و لكن أنى لك هذا و أنت في التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها نعيما و صفوا. عرفته ينفق اليوم و الأسبوع و الشهر والسنة لا يأكل إلا لونا واحدا يأخذ منه حظه في الصباح، يأخذ منه حظه في المساء لا شاكيا و لا متبرما و لا متجلدا و لا مفكرا أن حاله خليقة بالشكوى. لو أخذته يا إبنتي من هذ اللون حظا قليلا في يوم واحد لأشفقت أمك، و لقدمت قدحا من الماء المعدني، لانتظرت أن تدعو الطبيب. لقد كان أبوك ينفق الأسبوع و الشهر لا يعيش إلا على خبزالأزهر، وويل للأزهريين من خبز الأزهر، إن كان يجدون فيه ضروبا من القش و ألوانا

من الحشرات و كان ينفق الأسبوع و الشهر و الأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا في العسل الأسود، و أنت لا تعرفين العسل الأسود، و خير لك أن لا تعرفيه".[9]

عكف طه حسين على دراسة العلوم الدينية و اللغوية بالأزهر الشريف و كان الشيخ سيد المرصفي يلقى درس الأدب، فأغرم به و لزم دروسه التي كان يقرأ فيها الكامل للمبرد و الأمالي لأبي على القالي و حماسة أبي تمام. لم يلبث أن أخذ يغوص في محيط الحركات الإصلاحية التي كان ينادي تلاميذ محمد عبده البارون من مثل قاسم أمين الذي كان يدعو إلى حرية المرأة ، و لطفي السيد الذي كان يصدح في " الجريدة" إلى مقاييس و معايير جديدة في السياسة و الأخلاق و الاجتماع، و سرعان ما تحول إلى هذا المعلم يتنور به في حياته العقلية و أفكاره السياسية، فاختلف إلى صحيفته، مستمعا لأفكاره تارة و كاتبا بإرشاده و على منواله و هديه تارة أخرى. و قد سبق الذكر أن الجامعة المصرية فتحت أبوابها للطلاب عام 1908م فانتظم فيها و أخذ يستمع إلى من كانوا يحاضرون بها من المصريين أمثال الشيخ المهدي و محمد الخضري و حفني ناصف و من المستشرقين الكبار أمثال نالينو و جويدي. لم يلبث أن تفتحت له آفاق جديدة واسعة في بحث الأدب و دراسته و نقده. بفضل المناهج الدراسية العلمية في النقد التي استمع إليها من الأساتذة الأوروبيين، و اتجه فورا إلى تعلم اللغة الفرنسية في مدارس ليلية و على أيدي بعض المعلمين الأجلاء، حتى

[9]- الأدب العربى المعاصر فى مصر- الدكتور شوقى ضيف، ص285-286.

استطاع أن يفهم المحاضرات التي كانت تلقى بهذة اللغة. و لا نكاد نصل إلى عام 1914م حتى نراه يتقدم إلى درجة الدكتوراه برسالة عن أبي العلاء و ينجح بالدرجة التي كان يحلم بها بين الإعجاب والثناء و التقدير.

و على الرغم من أنه لم يكن قد وسع في محيط قراءته في الآداب الغربية و في آثار المستشرقين نجده يتقدم هذا الباحث القدير ببحث دقيق يستوفي فيه حياته و بيئته وعصره و ظروفه التي أحاطت به و كونت أدبه و فلسفته.

اتفقت الجامعة الأهلية إرساله في بعثة إلى فرنسا، و التحق بجامعتها و أكب على العلوم التاريخية وظل فيها نحو عام، وعاد في نهايته إلى مصر لسوء حال الجامعة المالية و سرعان ما تحسنت الأوضاع و ظروف الجامعة، فرجع بعد ثلاثة أشهر و نزل بباريس. لا يكاد الدكتور يتعب من الحديث عن باريس و أصبح يعتاد الزيارة إلى فرنسا كأنما باريس موطنه الأصيل تكاد تختصر العالم كله باختلاف أنواعه و مزاياه وحينما يصل إلى فرنسا يذوب ذوبا تاما في الحياة الفرنسية يأسر لبه جمال الطبيعة الفرنسية الذي كان يرسل إليه رواياته و كتبه وحيا، من أروع ما يصور الحياة في باريس يقول: " لكن الحياة في باريس عناء وغناء لا ينقطع ما تفرض عليك من الجهد ولا ما تثير في نفسك من المتاع و لست أتحدث عما في باريس من مشقة مادية أو لهو مادي، فلي والحمد لله صدوف عن هذا اللهو، و لي والحمد لله من يريحني من مشقة الحياة المادية و

إنما أتحدث عن العناء والغناء اللذين بالقلب والعقل و الذوق فهما لا ينقطعان إلى أن تفارقها، و أكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها لأنك لا تتركها إلا و قد تزودت بالشيئ الكثيرمما يثيرالألم و يذكي اللوعة و مما تعلق به الآمال وتحيا به القلوب لا تكاد تنظر في الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفة و يغريك بالعلم ويحثك على الاستقصاء"[10]. و هناك أخذ يتردد إلى محاضرات المؤرخين و الأدباء في السوربون و الكوليج دي فرانس. مرة يستمع إلى محاضرات في التاريخ اليوناني القديم ومرة ثانية يستمع إلى محاضرات في الفلسفة وعلوم النفس و مرة ثالثة يستمع إلى محاضرات بعض المستشرقين و خلال ذلك يتعلم اليونانية و اللاتينية و تساعده في ذلك فتاة فرنسية كريمة، وهي التي اتخذها فيما بعد شريكة لحياته.

و كان من أهم ما أغرم به من دراسات في السوربون المشاكل الفلسفية والاجتماعية و قد بلغ به هذا الغرام إلى أن اتخذ رسالته للدكتوراه " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" و أنه كان ثائرا على المناهج التربوية و التقليدية التي تكتفي بتدريس الفقه و الأدب العربي القديم، و أغاض الكثيرين من الأساتذة و من الشخصيات السياسية و الدينية.

[10] طه حسين فى ميزان العلماء و الأدباء ـ محمود مهدي الإستانبولي، الطبعة الأولى صـــ404

الفصل الثاني

خدماته الأدبية و الصحفية

ترك طه حسين وراءه موسوعا ثقافيا و أدبيا على اختلاف أنواعها و صرف عنايته إلى السيرة النبوية العطرة و ينشر سلسلته البديعة " على هامش السيرة" في ثلاثة أجزاء. و قد أ خرج قصته " أديب" رسم أحد زملائه في البعثة، و تحدث أثناء ذلك عن الجامعة المصرية و رحلته إلى أوربا، و يعد هذا الكتاب على قمة من روائع أدبنا التصوير الحديث، و عقب ذلك أنشأ كتابا عن المتنبي عام 1937م سماه " مع المتنبي" و تصادف أن أمضى الصيف فى ريف من أرياف جبال الألب و يجتمع بتوفيق الحكيم و تكون نتيجة هذا اللقاء " القصر المسحور" و هو طائفة من الرسائل الأدبية، تصورا فيها شهرزاد و تخيلاه و قدم كل منهما آراءه في الأدب والحياة.

في كتابه " مستقبل الثقافة " و نشره في عام 1939م وهو يقع في مجلدين. نجده بعد أن أعاد كتابه القديم عن أبي العلاء المعري باسم "تجديد ذكرى أبي العلاء" نشر عنه بحثا جديدا باسم " مع أبي العلاء في سجنه " يرسم فيها جوانب نفسية و فلسفية لهذا العقل العملاق. و أفرد بعد ذلك بكتيب سماه " صوت أبي العلاء" جعل فيه بعض أشعاره. نراه يلفت عنايته إلى القصة فينشر " أحلام شهرزاد" و "شجرة البؤس" و " دعاء الكروان" و هو في هذه كلها يعبر عن مثله القومية

الإنسانية. أما في الأولى يعالج مشاكل العصر و نظام الطبقات الظالم خلال هذه الأسطورة القديمة عن شهرزاد و شهريار، و أما في القصة الثانية يقدم أمامنا صورة راقصة حية لأسرة مصرية تعاقب فيها ثلاثة أجيال تصور أثناء ذلك الطبقة المصرية البائسة و تقاسي من تعاسة و اعتقاد في التوكل و القضاء، و في القصة الثالثة جعل الكروان يشترك مع أشخاص القصة في المصائب و الآلام، و تصور حياة المصريين طوائف من البدو و الفلاحين و الموظفين كما تصور مشاكل التعليم، يدور صراع عنيف بين الغريزة الجسدية و الضمير و مطالب الفرد و الجماعة.

لم يلبث أن نراه ينشر في هذه الفترة طائفة من مقالاته في النقد باسم " فصول في الأدب و النقد" كما ينشر مجموعة من مقالاته التحليلية في القصص والمسرحيات الفرنسية بعنوان " صوت باريس" و " لحظات" و يرسم رحلة له إلى أوربا في صيف عام 1948م و يذيعها باسم " رحلة الربيع" و ينشر كتاب " جنة الحيوان" و هو مجموعة رسائل أدبية رمزية، كما ينشر " مرآة الضمير الأدبي" و هي رسائل في انتقاد الأخلاق و المجتمع، و ينشر " جنة الشوك" و هي محاورات ومكالمات تدور بين شيخ و تلميذه. و هي مكالمات لاذعة تهدف إلى إصلاح الفاسد في مجتمعنا و تقويم الاعوجاج في صورة قوية. و يحرر أقاصيصه " المعذبون في الأرض" واصفا فيها ما ينزل بالمصريين من ظلم و إعسار وعسف في عصور الإقطاع و الفساد السياسي. و أخرج قصته " الوعد

الحق" راسما فيها ظهور الإسلام و داعيا إلى مثله الاشتراكية في الحياة . أصدر كتابا باسم " بين و بين" و هو خواطر في الحياة و المجتمع، و يخرج كتابا عن " علي بن أبي طالب" و كتابا آخر عن أبي بكر و عمر، و ينشر كتابه " مرآة الإسلام" كما ينشر مجاميع من مقالاته في الحياة و الأدب و النقد. و كذلك أخرج العديد من الكتب والقصص أمثال "الخلفاء الراشدون" و"نفوس للبيع" و" خصام و نقد" هي رسائل، و حكايات معربة، و ملح أدبية، و أبحاث موجزة، و "من بعيد" و "من أدبنا المعاصر" الحب الضائع" و " من لغو الصيف إلى جد الشتاء" و " القدر". و إن القصة القصيرة شائعة في كتابات طه حسين، أحيانا يرد مستقلا، و أحيانا غير مستقل، و نطوي كلامنا على البعض منه للظفر بفكرة جلية عن مميزات هذا القصص و موهبة صاحبه في القص. إننا لنجد طائفة من هذه الحكايات في الكتاب الذي سماه " الحب الضائع" و الذي لا ينطبق عنوانه إلا على القصة الأولى منه. و الكاتب محدث لبق، كاتب أخاذ يروعك بحسن كلامه و سلاسة بيانه، وعذوبة ألفاظه، و سلامة منطقه بالسرد. يقول حنا الفاخوري: " يخاطب القارئ ويحثه مستدركا أو مفسرا، ثم بالجمل الطويلة المؤلفة من عبارات لا يربط فيما بينها سوى أدوات العطف"[11].

[11] الجامع فى تاريخ الأدب العربى- حنا الفاخوري – الأدب الحديث- صـــ353

طه حسين لم يوفق في قصصه توفيقا مقبولا و نجاحا تاما، ولم يتمكن من معالجة القصة معالجة أوروبية عالية المستوى، و مع ذلك نجد في محاولاته بوادر نشوء الأسلوب القصصي و الجدلي والحواري.

يحاول طه حسين أن يشحن قصته بكل ما في نفسه من عاطفة جياشة حتى يشعر القارئ و هو يقرأها أنه في جو ثقيل بالشفقة والإباء و الانتصار للمظلوم. طه حسين ينفق الجهود الجبارة و الكلمات الكثيرة لإثارة العواطف في نفس القارئ، و يلح عليه إلحاحا. و أنه أتى في ذلك بمناقشة حتى ينقلب السرد إلى ضرب من المحاضرة، و استطرادات جميلة و لكنها تخلو خلوا تاما و تذهب من المتعة التي يبتغيها القارئ في الروايات و القصة.

سعى طه حسين أن يكشف عن خبايا نفوس أبطاله، و هذا شيئ هام جدا في القصص الحديث و لكنه يغوص عميقا في التحليل النفسي يسوقه إلى كثير من المحاسبات الذاتية و التكرارات التي لا ينفد لها معين، هذه كلها دلائل خصبة فكرية و عاطفية و لكنه في نفس الوقت عبء مثقل على كاهل السرد القصصي.

حينما في عام 1907م ظهرت في العالم العربي حركة تجديدية أطلقها طائفة من المفكرين أكبوا على العقل الأوربي الخصب و ارتشفوا من منهله و عملوا محاولين تفكيك العقل العربي من عقال أساليب النقد التقليدي و أساليب القديم، و من أروع الوسائل التي استخدمها الكتاب في هذا المجال الجرائد و المجلات و

الصحف، و اقتحم طه حسين في هذا المجال غير خائف و لا وجل و اشتغل محررا في عدد غير قليل من الصحف و المجلات من أبرزها جريدة "السياسة" انطلق من خلاله طه حسين في جرأة و شجاعة يوجه الأمة العربية ويعالج أسباب تخلفها و يقاوم المتحجرين و المتزمتين الذين رفعوا علم البغاوة ضده. إذ التزم بنشر قصة ملخصة يوم الأحد من الأدب الفرنسي و في يوم الأربعاء بنشر بحث في الشعر العربي . لا يلبث أن انضم إلى حزب الوفد، و لا يزال يكتب في صحيفة " كوكب الشرق" و يصدر صحيفة " الوادي" و انقلب قلمه فيها إلى ما يشبه سوطا، يلهب به لحم صدقي باشا الطاغية، كذلك يحرر صحيفة " الكاتب المصري" و يعمل على نهضة جبارة في حقل الترجمة و النقل و أطلق جيشا من المترجمين من عدة لغات بهدف نقل الأعمال الكبيرة إلى اللغة العربية و يكتب في صحيفته مقالات أدبية مختلفة تناول فيها بعض الأدباء الغربيين و بعض الدراسات في الأدب العربي و سعى من خلاله أن يقيم أكثر ما يمكن القيام به من الصلات بين الثقافة الغربية و مصر و العالم العربي كله، كتب في العديد من الصحف مثل " مصر" و " الاتحاد" اتخذ منها منبرا للذود عن آرائه في الأدب و السياسة.

الفصل الثالث

المناصب وجائزة النيل

إن هذا الأديب المصري و المفكر النافذ الذي طبق صيته في الآفاق وعرف ب"العميد العربي" إذ كان يمثل دورا فريدا في الأدب الحديث تأليفا و دراسة و ترجمة ونشرا، و لعب دورا رائعا في مجال الوطن و الثقافة حضا و توجيها و تطويرا و أخيرا دورا ملموسا في حقل التربية إذ أقر التعليم المجاني لأبناء شعبه عندما تربع على كرسي وزارة المعارف و نادى، و صدح بمبدئه المشهور الذائع "التعليم " إجباري" كالماء و الهواء[12].

و قد فاز الدكتور طه حسين بجائزة الأمم المتحدة " لأبرز المنجزات" في حقل حقوق الإنسان. و في عام 1950م تم اختياره وزيرا للتعليم و التربية، و في سنة 1951م توجته كلية ترينتي بجامعة اكسفورد في إنجلترا بتاج الدكتوراة الفخرية في الآداب. و أعطته الدولة عام 1958م جائزتها التقديرية للآداب.

في عام 1965م أن الرئيس جمال عبد الناصر منحه جائزة "قلادة النيل". فقد أنجز طه حسين العديد من المشاريع التي تراوده قبل توليه الوزارة إذ أنشأ كلية جديدة للطب و كذلك جامعة جديدة هي جامعة إبراهيم التي أصبحت تسمى الآن جامعة عين شمس، و أنشأ المعهد الإسلامي في مدريد، و كما في العاصمة

[12] الجامع فى تاريخ الأدب العربى- حنا الفاخوري، الأدب الحديث، صـ336.

اليونانية فقد بعث كرسيا جامعيا للغة والثقافة العربية، و قد أحبه الناس لهذة الإنجازات العظيمة لذا كانوا يرفعون الهتافات له عندما يمر في الطريق " يحيا وزيرنا، يحي صديقنا يحي أبو المساكين ذلك الذي ينورنا"[13]

فُصل الدكتور طه حسين عن عمله كأستاذ بالجامعة سنة 1932م بسبب أفكاره و مواقفه التحريرية، و لم يلبث أن أعيد كرسي الجامعة إلى الدكتورطه حسين فكانت فرحة طلابه الذين حملوه في ساحة الجامعة متفجرة و غامرة. كذلك كان يراقب الدكتور في الجامعة الأمريكية إذاعة "فرنسا الحرة". فقد أنشأ جامعة الاسكندرية، و أسس مجلة " الكاتب المصري" و أن الأزهريين قد حضروا محاضراته في الجامعة الأمريكية و صفقوا له، و حضر الدكتور طه حسين العديد من المؤتمرات الدولية التي عقدت في بعض الدول الأوروبية، خلال جميع هذه المؤتمرات كان يؤكد في معظم خطبه التي ألقاها على ضرورة تدعيم و إثراء الحوار بين الشرق و الغرب، و العالم المسيحي والعالم العربي.

ألقى الدكتور في "فلورنسا" محاضرة قال فيها" إن واجبنا يتجلى في عقد روابط الأخوة بين العالم العربي أمثله هنا- أنه بوسع أصغر مسلم إذا قال الحق، أن يقوله باسم الجميع- وبين العالم المسيحي و مدها إلى كل الناس، و ذلك لا وجود في نظر الله لشرق أو لغرب ولا للجنوب و لا للشمال ، و إنما العالم و الناس، و

[13] العرب الثقافى – الخميس – 27-09-2007 صـــ9

عندما يمنح الله العدالة للناس فإنه لا يمنحها للمسلمين فقط أو المسيحين فقط، إنني أطالبكم بمحاسبة أنفسكم"[14].

و قد علق أحد الصحافيين الإيطاليين على خطاب الدكتور طه حسين قائلا: "كان كلامه، بل أكثر من ذلك شخصيته نفسها تستأثر بانتباه الجميع. و ذلك أن الدين و الثقافة قد أوجدا فيه نقطة التوازن و الاتحاد الكاملين".[15]

[14] العرب الثقافي – الخميس – 27-09-2007 صـــ9
[15] نفس المصدر، صـــ9

الباب الثاني

طه حسين و علاقته مع المستشرقين

الفصل الأول

طه حسين وبعض اعتراضاته حول الأدب العربي والإسلام

الفصل الثاني

طه حسين و منهجه للنقد

الفصل الثالث

أسلوب الكاتب و القيمة الأدبية للكتاب"حديث الأربعاء"

الفصل الأول

طه حسين وبعض اعتراضاته حول الأدب العربي والإسلام

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية أعلن الدكتور طه حسين مناصرته الصريحة لفرنسا و دول الحلفاء و زار الجنرال ديغول الذي كان وقتذاك قائدا للمقاومة الفرنيسة في القاهرة في شهر أبريل عام 1941م .

زعمت السيدة سوزان طه في كتابها "معك" عن حياة طه حسين و قالت: بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أصبحت بيت الدكتور طه قبلة مشاهير الزوار، الفرنسيين منهم بالخصوص. و كان أندريه جيد الذي تربطه بالسيدة سوزان قرابة عائلية أول هولاء الزوار، و قد رحب به الدكتور في مكتبه ترحيبا حارا.

حينما انعقد في مكتب القاهرة مؤتمر لإشادة ذكرى "إبن خلدون" و تخليدها أقيم له تمثال كبير في ميدان من أهم الميادين و قد حضر هذا المؤتمر عدد لا بأس به من علماء الغرب الذين أشادوا الدور الذي مثله إبن خلدون في بناء منهج علم الاجتماع المستقيم و منهج علم التاريخ السليم.

لقد فتح الدكتور أبواب الجامعة " كلية الآدب" للمشتشرقين وعتاة الدراسات التبشيرية و التغريبية ليحطموا في نفوس أبناء الأمة العربية الإسلامية كل

عقائدهم و مقدساتهم. و عندما ترك الدكتور طه حسين الجامعة أعلن الأساتذة المستشرقون أنهم لن يدخلوا الجامعة إلا إذا عاد هو.

و على رأس هؤلاء الأساتذة العميد الجريجور، والفيلسوف اميل برهين و عالم الآثار الانجليزي بحرندور والشخصية الساحرة سكايف الذي كان أستاذا للأدب الانجليزي و سالمروسانياك. هؤلاء كلهم يأتون إلى بيت طه حسين برفقة زوجاتهم و يقضون ساعة أو ساعتين.

مما لا شك فيه أن هذه الجلسات كانت مصدر تلك القنابل المحرقة التي كان طه حسين يلقيها على الإسلام والتاريخ الإسلامي و الفكر الإسلامي يوما بعد يوم و أنها كانت مصدر الوحي لدراساته المختلفة التي سبق بها المستشرقون إلى تصوراتهم و مزاعمهم تهدم التراث الإسلامي، قد أشار أحد الباحثين إلى أن المستشرقين قالوا لطه حسين إن منهج ديكارت يغيظ الأزهريين و إن أسلوب الشك هو مصدر الشهرة و إثارة الدوي.

كما لا يخفى على دارس الكتب التي ألفها طه حسين أنه طابق المستشرقين أو سبقهم أو تابعهم في آرائهم المزعومة المختلفة، فعلى سبيل المثال.

- في رأيه في المتنبي الذي سبقه به بلاشير.
- في رأيه في الشعر الجاهلي الذي سبقه به مرجليوث.
- في طريقة هامش السيرة التي سبقه بها الكاتب المسيحي فلان.

- في نظريته في الأدب و النقد التي سبقه بها تين برونتر.
- في نظريته أن الدين نبت من الأرض و لم ينزل من السماء كما سبقه بها دوركايم.
- في رأيه أن وجود إبراهيم و إسماعيل لا دليل عليه تاريخيا و قد سبقه بها هاشم العربي.
- في أسلوب بحثه عن ابن خلدون أخذه عن دوركايم.
- اتجاهه في حديث الأربعاء استقاه من من سانت بيف.

مما لا يدع مجالا للشك أنه تناول فكر الاستشراق في الجامعة المصرية القديمة وكانت دراساته الواسعة في فرنسا امتدادا لذلك و قد تلقى من " نلينو" مصادر التاريخ الأدبي و من "برجستزار" التطور النحوي و من "جويدي" علم اللغة الجنوبية القديمة و من "ليتمان" فقه اللغة و قد بلغ تأثره بالمستشرق "كازنوفا" إلى أن قال : إنه لم يفهم القرآن في الأزهر الشريف و فهمه في فرنسا على " كازنوفا" إنه يتعلم تفسيرالقرآن من مستشرق متأثر بالفكرالتلمودي الذي كان مسيطرا على الأوساط العلمية في الغرب، ثم يؤمن بأن لديه من المفاهيم ما يرضي نفسه و ما يشعره بأنها المفهوم الحقيقي للقرآن، في حين ضاق صدره بمفاهيم القرآن في كتب المسلمين استقبلته في مقتبل حياته في الأزهر الشريف و صرف نظره عنها و قصر عن فهمها.

إنـه لمـن الأسـف الشـديد أن يقـال أن الـدكتور طـه حسـين تلقـى فهـم القـرآن مـن مستشرق مثل كازنوفا و يمشي مشية المستشرقين الذين كانوا في أبحـاثهم تـابعين للوزارات الخارجية و الاستعمار الذي تحـاول جاهدة أن تهـاجم الفكـر الإسـلامي مهاجمـة عنيفـة و تشـويهه لتـدمير معنويـات المسـلمين التـي تتعـارض عقيدتـه مـع الإسلام.

إن المستشـرقين مـن أمثـال "دوركـايم" و "كازنوفـا" و "ماسـنيون" عملـوا علـى إعداد فكر طه حسين حتى يكون غربيا خالصـا، و جعلتـه البيئـة الاجتماعيـة مـن الناحية الأخرى على نحـو حمل أمانتـه للغرب و لفرنسـا أكثـر ممـا حمـل أمانتـه للإسـلام و المسـلمين العـرب، بـل أراد أن تكـون بـلاده صـورة طبـق الأصـل فـي الفكـر الغربـي فـي محاكـاة الحضـارة الغربيـة و اتخاذهـا نموذجـا و زعـم أن ذلـك يحرر بلاده من براثن الاستعمار السياسي أو العسكري.

وصف الدكتور طه حسين صلته الوطيدة بالمستشـرق "كازنوفـا" الـذي تلقـى منـه علوم القرآن و تفسيره فـي " الكـوليج دي فـرانس" علـى نحـو الإعجـاب يقـول: " عرفتـه أسـتاذا فـي " الكـوليج دي فـرانس" و لـم أكـد أسـمع لـه حتـى أعجبـت بـه إعجابا لم أعرف له حدا، كان يفسـر القرآن و كنـت حـديث العهـد بـبـاريس، كنـت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين و لكنـي لـم أكـن أقـدر هـؤلاء المستشـرقين يستطيعون أن يعرضـوا فـي إصـابة و توفيق لألفاظ القرآن و معانيه، والكشـف عن

أسراره و أغراضه، فلم أكد أجلس إلى كازنوفا، حتى تغير رأيي أو قل ذهب رأيي كله و ما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدرعلى فهم القرآن و أمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن و يرون أنهم خزنته و سدنته و أصحاب الحق في تأويله، فُتنت بهذا الرجل لا لأنه كان عالما حاذقا، و لا لأن منهجه في البحث كان متقنا دقيقا حصيفا بل لهذا ولشيئ آخر خير من هذا، كان حرا خصبا رفيقا لا يتعصب لرأي ولا يتأثر بهذه العواطف المنكرة التي تفسد على الناس عملهم و أدبهم و فنهم و حياتهم العقلية و الشعورية بوجه عام.

كان "كازنوفا" مسيحيا شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد التعصب، و لكنه كان إذا دخل غرفة التدريس في "الكوليج دي فرانس" نسي من المسيحية و اليهودية و الإسلام كل شيئ، إلا أن لها نصوصا يجب أن تخضع للبحث اللغوي كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها في معاملهم بما يشاؤون من ألوان البحث و الامتحان، نعم لم يكن مسيحيا و لا متدينا حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنية يدرس لفظه و يكشف معناه"[16]

جعل الدكتور إشارة إلى مودته الشديدة لـ ليتمان يقول:" إذا ذكرت ليتمان إنما أذكر أستاذا كان له أبلغ الأثر لا أقول في حياتي الخاصة بل في حياة كثير من الشباب الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة المصرية القديمة، ما أعرف أحدا أبر

[16] طه حسين في ميزان العلماء و الأدباء ـ محمود مهدي الإستانبولي، الطبعة الأولى ـ صـ388

فـي الحيـاة العقليـة للشـباب المصـري فـي ذلـك الوقـت مثـل الأسـتاذ " ليتمـان" و "نلينو" الذي نشأ بيني و بينه من المودة لم يلبث أن تحول في نفس "ليتمـان" إلـى حب عميق وكان يعتبرني إبنه، و كان يرى أني قد استطعت أن أفهم عنه".[17]

قد جد المستشـرقون فـي ضـم الـدكتور طـه حسـين إلـى كـل مـؤتمراتهم و كـانوا معجبين بـه و ذلـك لأنـه كـان يتلقـى خططهم فيطبقهـا و يعـرض لهـا مـن البيـان و التقارير ما يُسرهم، ولا يتذبذب في أن يقول عن أي موضـوع مـن الموضـوعات إن المستشرقين لا يقبلون هذا التفسير أو هذه الفكرة، و يلـزم أن يُختـار أسلوب آخر يناسبهم و يرضيهم و قد تجلى هذا واضحا في أبحاثه عن القرآن و الشؤون التي تتعلق بالإسلام.

و إن تنـازل "نلينـو" عن رئاسـة التعليم لطـه حسين يقدم دليلا ماديـا علـى صـلته الوثيقة بالمستشرقين. تزعم السيدة سوزان طـه أن جميـع المستشـرقين الكبـار فـي أنحـاء الأرض إذا مـروا بمصـر زاروا طـه حسـين. و أن المشـايخ الكبـار مـن المستشـرقين يحـاورون بصـداقة مـع طـه حسـين منـهم الـدومينكان، و رئـيس كليـة الأسرة المقدسة الأب العزيز "فارغو" و جورج درينتون مدير معهد الآثار.

[17] طه حسين في ميزان العلماء و الأدباء ـ محمود مهدي الإستانبولي، الطبعة الأولى ـ صفـ404

تذكر السيدة سوزان طه في كتابها "معك" قائلا: " كانت المقاطعة تامة من جانب أغلب المؤسسات الجامعية و الصحافية ، وحدها الجامعة الأمريكية تجرأت و دعت

الدكتور طه حسين لإلقاء بعض المحاضرات التي لقيت إعجاب الشباب المتحمس لأفكاره"[18].

لم يكن هذا العون و المساعدة من قبل المستشرقين إلا لأن طه حسين كان يؤيدهم في آرائهم في كتاباته المسمومة، وفي أكثر الأحيان كان يسبقهم في حملات عنيفة على الإسلام.

وفي مناسبة أخرى تقول السيدة سوزان طه: " في هذه المرة جاء العون من مستشرقين مرموقين من أمثال ماسنيون الذي بعث له رسالة مفعمة بالود و فيها يطلب منه إن كان مستعدا لإلقاء محاضرات في جامعتها"[19].

إن الدكتور طه حسين الذي نقل فكرالاستشراق والتغريب إلى اللغة العربية و اتخذه مدخلا للفكرالإسلامي العربي و ركز عنايته و قد سبقه المستشرقون في طليعتهم المستشرق الشهير اليهودي مرجليوث (الذي يُعتبر الأستاذ و المصدر الأول لطه حسين) في إنكارنسبة الشعر الجاهلي إلى قائليه، و رفض قبول صحة النصوص الأدبية الجاهلية إلى عصور ما قبل الإسلام. ولم يكن الهدف الرئيسي

[18] العرب الثقافى – الخميس – 27-09-2007 صـــ9
[19] نفس المصدر، صـ9

وراء هذا كله إلا إدخال الشكوك في الشعر الجاهلي الذي يُعتبر المصدر الأول لتفسير مصطلحات اللغة العربية في القرآن الكريم ، فإذا انهدم هذا الركن المتين أو أكلته سوس الشكوك كان بعيد الأثر في هذه الوجهة، و تغريب الإسلام و التأثير في مفاهيم القرآن الكريم و التاريخ الإسلامي، أنه يزعم أن هذا الأدب الجاهلي إما مزور و منحول قام بنسخه كتاب من العصر الإسلامي متحمسين بالأغراض السياسية زورا إلى عصور ما قبل الإسلام. و يرفض الدكتور طه حسين الاعتماد على روايات القدماء رفضا باتا عند تحقيق مصادر الأدب الجاهلي و تمحيصه و يلجأ إلى مذهب الشك الحديث لمنهاج في بحثه و تدقيقه الذي بناه ديكارت هو يقول : " أريد أن أصنع في الأدب المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت البحث من حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، و القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيئ كان يعلمه من قبل، و أن يتناول موضوع بحثه خالي الذهن مما ِقيل فيه خلوا تاما"[20]

يقول نعيا على القدماء و تنديدا بهم: " بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها و ننتهي إلى الحق. أما أنصار القديم أمامهم طريقة وأضحة معبدة، و الأمر عليهم سهل يسير، أليس قد أجمع القدماء عن علماء الأنصار في العراق و الشام و فارس و مصر والأندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام و قالت كثيرا من الشعر؟، أليس قد أ جمع هولاء العلماء أنفسهم على

[20] فى الشعر الجاهلى و اللغة العربية – أحمد عثمان، الطبعة الأولى أغسطس 1997 صـــ12

أن لهولاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة يتناقلها الناس و لا يكادون يختلفون فيها؟ أ ليس قد أجمع هولاء العلماء أن لهولاء الشعراء مقدارا من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم و تناقلها الناس، حتى جاء عصر التدوين في الكتب و بقي منه ما شاء إليه أن يبقى إلى أيامنا؟ فنحن بين إثنين : إما أن نقبل في الأدب و تاريخه ما قال القدماء، إما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث أريد أن لا نقبل شيئا مما قاله القدماء في الأدب و تاريخه إلا بعد تثبتٍ، إن انتهينا إلى اليقين فقد انتهينا إلى الرجحان، فشككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست في شيئ، و إنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين و ميولهم و أهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين و لا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدًا لا تمثل شيئا و لا يدل و لا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي".[21]

وأول دليل أو حجة ما يعرضها الباحث لإثبات صحة ما ذهب إليه و هو ما يلاحظه من أن غالبية الشعر و النثر المنسوب إلى العصر الجاهلي لا يمثل حياة العرب البدوية قبل الإسلام.

يقول: "أما الشعر الذي يُضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة من الشعور الديني و العاطفة الدينية، ولا تمثل عقليتهم و لا ديانتهم و لا

[21] في الشعر الجاهلي و اللغة العربية – أحمد عثمان، الطبعة الأولى أغسطس 1997 صـ12.

حضارتهم بل لا تمثل لغتهم " أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين" "هذا الأدب لا يمثل الحياة الدينية و العقلية و السياسية و الاقتصادية للعرب الجاهليين، و هو بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قِيل فيه مما تقرؤه على أنه شعر إمرؤ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس في هولاء الناس في شيئ، و إنما هو نحل الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاصين أو اختراع المفسرين و المحدثين و المتكلمين، فهي إنما تُكلفت و أُخترعت اختراعا يستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه".[22]

إن الدكتور طه حسين يبرز نقطة هامة مثيرا اعتراضات حول أصالة الشعر الجاهلي يقول: إن الحضارة و الهيمنة السياسية كانت لأهل الجنوب و للقبائل القحطانية دون القبائل العدنانية التي من شأنها أن ترفع أمر اللغة و تفرضها على الشعوب فرضا. إن الرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة و لا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام. و كان من الطبيعي لو كان لكل قبيلة من القبائل العدنانية لغتها أن يظهر اختلاف اللغات و تباين اللهجات في شعر هذه القبائل قبل أن يوحدها القرآن الكريم في لغة واحدة و لهجات متقاربة.

قد أ جاب عدد غير قليل من الكتاب و الناقدين على الدكتور طه حسين و ردوا عليه ردودا عنيفا و ذلك أن الأدب الجاهلي لا يعبر عن حياة الجاهليين، هذه

[22] فى الشعر الجاهلى و اللغة العربية – أحمد عثمان، الطبعة الأولى أغسطس 1997 صـــ14

النقطة ليست بذات أهمية كبرى. فمن الطبيعي ألا يحفظ المسلمون و ألا يرددوا أشعارا وثنية تنطوي على إساءة لمعتقداتهم الدينية الجديدة.

نستطيع أن نسلم أنه كان هناك خلاف بين لغة حمير و عدنان مع هذا التسليم نقول له: هذا لا يفيدك شيئا لأن القحطانيين الذين وصل إلينا شعرهم، إنما هم من أبناء سبأ بن يعرب ثم من كهلان تركوا بلادهم قبل الهجرة بأكثر من قرنين بعد سيل العرم و نزحوا إلى الشمال ، منهم اللخميون ملوك الحيرة، و الغسانيون ملوك الشام و سكان يثرب و غيرهم من قبائل الأزد، ممن هاجر بطون طئ و سكان الجبلين أجا و سلمى، و بطون من كندة الذين ملك بنوهم على قبائل من عدنان...أ فليس هذا كافيا لأن تتمازج اللغات و تتحد الألسن؟ و إمرؤ القيس الذي دار الحديث عليه كان حفيدا لحجربن عمرو، أما حمير التي أقامت ببلادها من ظفار و صنعاء و ما جاورها، فهي التي قال عنه أبو عمروبن العلاء " ما لسان حمير و أقاصي اليمن لساننا، و لا عربيتهم عربيتنا"[23]

يقول الرافعي: " لا ندري كيف يظهر في الشعر تباين اللهجات ؟ فإن اللهجة كما قدمنا إنما هي ما يرجع إلى الأداء، و الشيئ الواحد قد يُؤدي بلهجات مختلفة و هو في حركاته و سكاناته. و قد أحادث مغربيا فلا أكاد أفهمه لأن له لهجة خاصة، و لكنه لو كتب إلي ما تحدث به أو أنشده لم أجد أدنى صعوبة في فهمه و لوجدته مماثلا للغنى و لا يمتاز عنها لا في كلماته و لا في نحوه و لا في

[23]- فى الشعر الجاهلى و اللغة العربية – أحمد عثمان، الطبعة الأولى أغسطس 1997 صـــ14

صرفه". و قوله بعد ذلك " نستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع بدون أن تشعر بشيئ يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة، كلام بعيد عن التحقيق العلمي، بل هو ليس بمفهوم، إذ كيف أشعر باختلاف اللهجة و أما أقرأ أشعارهم؟ إنما أشعر بها إذا أنشدها قائلوها و استمعتها منهم، فإني حينئذ أشعر بما تتخالف فيه قيس و ربيعة و تميم من اللهجات"[24]

و الجدير بالذكر أن الشعراء كانوا شديدي الحرص على انتشار كلامه و أبياته بين القبائل و كان لدى كل شاعر من الشعراء رواة كانوا يروون شعره و يروجون كلامه و إنتاجاته الشعرية بين الناس كان زهير راوٍ لشعر خاله بشامة بن الغدير و كذلك أصبح الحطيئة راوية لشعر زهير، يبدو أن هذا الحرص الشديد لرواج كلامه و قبوله لدي الجميع أدى الشاعر إلى الاهتمام بوحدة اللهجة و نبذ اللهجة المحلية حتى يزداد أوساط قرائه.

لم يكن دائرة الاعتراضات التي أثارها الدكتور طه حسين مقتصرة على الأدب العربي و تاريخه و أساليب نقده بل تعدى إلى حمى الإسلام كتب الدكتور طه حسين مقالا تحت عنوان " العلم و الدين" قامت بنشره جريدة "السياسة الأسبوعية" بعددها الصادر في السابع عشر يوليو عام 1926م حاول جاهدا أن يثبت فيه أن العلم و الدين بينهما خصومة شديدة و أنه ليس بينهما ما يمكن أن

[24]- فى الشعر الجاهلى و اللغة العربية – أحمد عثمان، الطبعة الأولى أغسطس 1997 صـــ14.

يسمى موافقة بأي حال من الأحوال، وذكر أن هناك أمرين جليلي الخطر يثبت كل منهما تلك الخصومة و يؤكدها:

الأول: أن الدين يثبت وجود الله و نبوة الأنبياء و رسالة الرسل و يجعل الناس أن يتمسكوا بالإيمان بهما، أنه يثبت أمرين لم يكن قد استطاع العلم إلى الآن أن يثبتهما و يصدقهما فالعلم لم يصل بعدُ إلى إثبات نبوة الأنبياء و رسالة الرسل و إذاً فبين العلم والدين خصومة و منافرة شديدة في هذين الأمرين يصدقهما الدين و لا يعترف بهما العلم.

ذلك ما جاء به الدكتور طه حسين فهو يؤكد أن بين الدين والعلم خصومة و قد شمر عبد الباقي سرور نعيم عن ساق الجد، فردّ على الدكتور ردودا عنيفا و أجاب عليه جوابا منطقيا مفحما مليئا بالدلائل يقول: قد التبس على الدكتور ما يُراد بلفظ العلم و اختلط عليه مفهومه و مُراده و ما صدقه، فلفظ العلم يُطلق تارة على ما يثبت الاختبار و التجربة و هذا هو المراد حينما يستخدم في مقابلة الدين و يُطلق تارة أخرى و يُراد منه مجموع المباحث التي تناولها الفكر الحديث من نظريات ثبتت أو لم تثبت و فروض قريبة الاحتمال أو مستعبدة و من آراء شخصية و مذاهب فلسفية خاصة و هو بهذا الإطلاق يشمل الأوهام و الخيالات و الظنون و الحكايات أيضا، فأما المعنى الأول للعلم و هو الخاص بما تثبته التجربة و يؤيده و يؤكده الاختبار فليس بينه و بين الدين خصومة أو منافرة بأي

حال من الأحوال لأنه يعمل و يشتغل في ناحية لا تناقض الدين و لا تقع في دائرته: اكتشف جزءا من أجزاء الكون و هو ما نالته التجربة و وقف على كمياته و كيفياته و استفاد بها في الحياة فهو يسير و يجري خلف التجربة، فكل ما تكشفه التجربة يثبته و يصوره لنا بصورة تنطبق عليه و تأتي الفلسفة بعد ذلك فتضع هذا التصوير في ميزان التقدير و تمنحه حقه من الرجحات أو التأكيد حسب مبلغ الاستقراء الذي قام به الباحثون في تلك المسألة المقدرة ـ من الوصول إلى درجة الاستقراء التام أو الاستقراء الناقص-.

و واضح كل الوضوح أن العلم بهذا الإطلاق ليس من مباحثه إثبات وجود الله و لا إثبات وجود الأنبياء لأنها ليس مما ينال بالتجربة أو يخضعان له أو يقعان تحت الاختبار، فطبيعة العلم الطبيعي لا تتناول أمثال هذه المباحث ووظيفة العلم الطبيعي لم تخلق لبحث تلك المسائل و لا عيب و لا نقصان يلحق إذ لم يتناولها العلم الطبيعي لأن للمعارف طرقا غير التجربة و الاختبار.

و لو أن المعارف حصرت طرائقها في التجربة و اعتُبر كل ما لم تتناوله التجربة غير صحيح لما كان بادئ الناس من المعارف المؤكدة غير ما جُرب في المعامل و اختُبر في المصانع و هو مقدار يسير جداً إذا قِيس بمعارف البشر. فالحق المزود بالدليل و المؤيد بالبرهان أن للمعارف طرائق متعددة منها

التجربة ، و قد اختصت بها العلوم الطبيعية، و منها البرهان و القياس و عليه مدار العقل البشري منذ ظهر التفكير إلى اليوم.

من هنا يتضح أنه ليس بين العلم الطبيعي الثابت بالتجربة و بين الدين خصومة، نعم بين المذاهب الفلسفية أو المذاهب العلمية التي دخلتها الفلسفة و بين الدين خصومة و لكن هناك فرقا واضحا جليا بين العلم الثابت بالتجربة و بين ذلك المذهب الوهمي الذي لا تصدقه تجربة و لم يقم على استقراء، بل يعترف صاحبه بأنه ظن و وهم.

فالخصومة بين تلك المذاهب الوهمية و بين الدين لا تضر الدين و لا تنال منه لأنها ليست علما بل خيالا و وهما، و كذلك علم الجيولوجيا فإن المحققين من علمائه لا يؤكدون أنه لم يصل بعدُ إلى درجة العلم التجريبي و أنه لا يزال مملوء بالأوهام، علم هذا لا يدخل بتفاصيله في مسمى العلم الواقعي إذا فرضنا أن بين بعض نظرياته و بين القرآن خلافا، فلا ضرر يلحق هذا الدين.

قد تبين من وراء هذا الخلاف أنه ليس خلافا بين علم و دين بل هو خلاف بين وهم و دين، و الوهم لا يُلتفت إليه في أمر النزاع و الخصومة، كذلك علم الإمبريولوجيا فإنه لا يزال في دور التكوين ، فمناقصة بعض نظرياته لما ورد في القرآن الكريم من تكّون الجنين لا تنال من القرآن الكريم و لا تضره، على أن القرآن لم ينزل ليعلم الناس شيئا من المباحث التي تتعرض لها العلوم و إنما

نزل للهداية و الإرشاد، فهو إذ قال: "أ لم تروا كيف خلق الله سبع سماوات" الآية،[25] لا يريد أن يقرر أو يثبت أن السماوات سبع و أن عددها يتحتم لا يزيد و لا ينقص كما تقرر مثل هذه المراصد و يتكلم فيه علم الفلك، بل يريد لفت الأنظار و العقول إلى أن كيفية خلق السماوات يعلم بجلال خالقه و بارئه و كمال مبدعه و إلى أنها في ذاتها مخلوقة لا خالقة كما كان يعتقد عباد الكواكب و الكهنة إذا كانوا يعبدونها و يسجدون لها و ينذرون لها و يخصون عبادتهم بالكواكب السبعة، فما ذكر القرآن الكريم عدد السماوات إلا للتنبه على أن الكواكب السبعة مخلوقة لا خالقة و مألوهة، لا آ لهة و معبودة، و من هذه الناحية لا يناقض ما ثبت من أن هناك كواكب أكثر من سبعة لأنه يريد الرد على من يزعم و يدعي أن هذه السبعة خالقة بقوله أن هذه السبعة مخلوقة.

لو أن الدكتور طه حسين و أمثاله من الأدباء و الكتاب تناولوا القرآن و فهموا حقيقته لعلموا أنه ماجاء ليخوض ما خاض فيه علماء طبقات الأرض و الباحثون في تكوين الجنين و الباحثون في علم الفلك و الهيئة، و إنما جاء للهداية و إرشاد العقل إلى ما فيه صلاحه.

ولو أنهم فهموا كذلك أن العلم التجريبي شيئ و العلم بمعناه العام شيئ آخر و أن الأول لا يناقض الدين و لا يخاصمه و أن الثاني لا تضر الدين مخاصمته و لا ينال منه نزاعه معه لأنه ليس قائما على استقراء و التجربة و أن للحق طرائق

---

[25]- الفرآن الكريم، سورة نوح، الآية 15

غير التجربة و من تلك الطرائق البرهان و أن الإسلام يعتمد على البرهان، لو علم كل ذلك لأراح الناس من كتابة هذا المقال و لفهم ما بين العلم الصحيح من العلاقة أو الانفصال.

قد قاد الدكتور طه حسين معركة عنيفة في وجه الإسلام و أورد العديد من الشبهات حول كتاب الله العزيز و ذلك أن أسلوب القرآن الكريم يختلف عن أسلوبه في المدينة و أن لغة القرآن المكي جافة و لغة القرآن المدني مذللة و يعزو هذا الخلاف إلى صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهود في يثرب الذين أثروا في أسلوب القرآن و كانوا في رأيه أهل ثقافة و حضارة و نبوغ.

يشير مسألة بشرية القرآن الكريم و يعتقد: " أن القرآن تعبير عن الحياة التي عاش فيها محمد صلى الله عليه و سلم بما فيها المكان و الزمان و جوانب الحياة الاقتصادية و السياسية و الدينية و الاجتماعية فإذا كان القرآن انطباعا منبثقا من البيئة فهو بعيد عن ذات هذه البيئة و بالعكس إذا كان بعيد عن البيئة فقد انطبع أولا- بلا شك - في نفس قائله قبل أن يعبر عنه و قبل أن يقوله، كلتا الصورتين تفصح عن أن القرآن عمل خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم تأثر فيه كما يتأثر الإنسان العادي، و عبر به عن المعاني التي كانت في نفسه من بيئة كما يعبر

الإنسان عن أية معان تجول في نفسه و قد تأثر بها في بيئته و انطبعت في حاضره في ظروف الحياة التي تحيط به".[26]

حينما يتحدث الدكتور طه حسين إلى طلبته في كلية الآداب على المنوال الذي اهتمت بنشره مجلة الحديث الحلبية قال: " إن القرآن نوعان مدني و مكي و لكل منهما صفة تتعلق بالبيئة و بالآثار التي تتصل بمن عاشرهم الرسول صلى الله عليه و سلم، مقولة

أن القرآن أدب يصح نقده و أن على طلاب الآداب أن يقولوا هذه الآية ركيكة و هذه الآية ضعيفة".[27]

و هذا هو ما تلاه و قرأه على الناس الدكتور عبد الحميد سعيد في مجلس النواب من كراسة الطالب و هو مسجل و مضبوط في مضابط المجلس. و قد أورد الدكتور طه حسين من أن الكتب القديمة يجب أن يتناولها الناقد بروح النقد و التمحيص و التدقيق، و علينا أن نتصرف في القرآن كما تصرف الغرب التوراة و الكتب السماوية، و أن القرآن كتاب أدب يصح نقده و أن على طلاب الآداب أن يقولوا: هذه الآية ركيكة و هذه الآية ضعيفة.[28]

---

[26] ـ كتاب العصر تحت ضوء الإسلام ـ أنور الجندي ـ صـ 26

[27] ـ نفس المصدر ، صـ27

[28]- نفس المصدر ، صـ27

لم يكتف الدكتور طه حسين بهذا بل يتجاوز و يقول: أن ما أوردته التوراة و أورده الإنجيل عن وجود إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام لا يعني وجودهما حقيقة و ذلك أن المؤرخين لم يعثروا على وجودهما في الكتب التاريخية و من خلاله حاول ترويج نظريته أن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمنا بضميره كافرا بعقله جاهرا في كتبه "الشيخان"[29] و فقد تحوي التجاوزات الخطيرة التي تمس العقيدة الإسلامية و الدين الحنيف وتجعل الشك في عدم وصول الدعوة الإسلامية إلى سائر أقطار الأرض حيث قال بالنص: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أظهر دين الحق على الدين كله في جزيرة العرب، و لكنه لم يظهره على الدين كله في سائر أقطار الأرض[30]. تحوي هذه الكتب الهدامة على افتراءات و أكاذيب باطلة و شبهات مغرضة تمس جوهر العقيدة الإسلامية و شخصية الرسول الأكرم صلي الله عليه و سلم و يسعى الدكتور أن تقرر هذه الكتب كمقررات دراسية في المدارس.

و أشد خطرا من هذا كله كتابه "هامش السيرة" حاول من خلاله الدعوة إلى إقامة ميثولوجيا إسلامية و عرض منهج الأساطير الذي تعرفه بعض الأديان في الغرب و في بلاد أخرى من أمثال الهند. و قد أشار الدكتور طه حسين إلى أنه ألف هذا الكتاب على النحو الذي اعتاده المستشرقون في الغرب.

---

[29]- كتاب العصر تحت ضوء الإسلام ـ أنور الجندي ، صـ27

[30]- نفس المصدر ـ صـ27

لقد حرر الدكتور طه حسين كتابه "الفتنة الكبرى" في الظرف الذي تفاقم فيه المد الإسلامي بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية و تنفيذها في المجتمع و كان خلاصة ما أذاعه: أن العرب لم يقبلوا منهج الإسلام، و أن هذا الإسلام لم يستطع أن يترك أي أثر في المجتمع الجديد و أن نظامه قد فشل في أواخر أيام عمربن الخطاب، و استدعى قيام الصراع الشديد في عهد عثمان، فكانت هذه الأحداث و الفوضى علامة على أن هذا المنهج لم يعد صالحا.

إنه رفض وجود شخصية اليهودي عبد الله بن سبأ صاحب المؤامرات الخطيرة التي أصبحت سبب مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه و لكن اتضح أنه لم يكن قد اعتمد على مصادر سليمة.

و من أشد حملة على الإسلام دعاوى طه حسين أن وحدة الدين و وحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية و لا قواما لتكوين الدولة و أشدها خطرا قوله أن نسلك مسلك الأوربيين و نعتنق من الحضارة الغربية ما يُحمد و يُعاب.

يرى الدكتور طه حسين في كتابه " مستقبل الثقافة" أن المؤثر الرئيسي في تشكيل الحضارة المصرية و تكوينها و تكوين العقل المصري هي حضارة البحر الأبيض المتوسط. و لقد اعتبر العرب كاليونان والفرس و الرومان مستعمرين، و نسي أن كل ما يُنسب إلى شخصية المصريين من صمود و قوة و قدرة على حماية المقدرات يرجع إلى عطاء الإسلام.

يرى أن مصر كانت دائما جزءا من أوربا في كل ما يتعلق بالحياة العقلية و الثقافية.

الفصل الثاني

طه حسين و منهجه للنقد

سلك الدكتور طه حسين في النقد الحديث مسالك محمودة مع سليم البستاني و إبراهيم اليازجي و أعاد النظر في الأساليب الأدبية و فتح الباب على مصراعيه أمام الخلق و الإبداع بعد أن غلق أبوابها عصور الفتور و ظلمات الجهالة و أشعل النار في هشيم النظريات القديمة المتحجرة، و وقف موقف أعمى المعرة يجعل العقل حاكما في كل شيئ لا يرى في الفوضى التي طغت على العقول و الأقلام إلا سبيل الثورة والرفض يطويه في غير هوادة و لا مداورة، و قد تمكن هذا الأعمى الجهبذ من أن يقلب المفاهيم الأدبية التي كانت تسود من قبل و أن يتخذ نفسه حدا فاصلا بين مقياسين للنقد الأدبي.

إنه خطا خطوة نقده عن طريق المحاضرات التي كان يلقيها على الطلاب في الجامعة و عن طريق المقالات التي كانت تنشرها الصحف و الجرائد وكان يتخذ فيها الثقافة أساسا للأدب والنقد و كان يرفض على العالم العربي تحجره الثقافي و اعتماده في الأدب العربي القديم يحاكيه محاكاة القرد و كان يؤمن بأن مبادئ النقد الغربية و وسائل الدراسة اللبرالية أن يُطبق في الدول العربية.

إنه ينتهج منهج ديكارت و سانت بوف و يغلو إلى حد بعيد في الشك في بعض الأحيان، يستخدم منهجية الشك التي بناها ديكارت لا ليصل به إلى اليقين أو إلى

ما يقرب من اليقين بل يأخذ بزمام القارئ من شك إلى شك و من إنكار إلى إنكار و يهيم في وادي الشك والارتياب، يجده القارئ في معظم كتبه و مصنفاته يثيرالشكوك والشبهات ثم يتركه من غير إجابة و دون أن يقدم له الحلول و دون أن يخبره ما هواليقين في تلك المسألة أو الأمر، على سبيل المثال عندما يتناول قضية السياسة بين الأنصار و المهاجرين و استبداد المهاجرين بالسياسة دون الأنصار و يسوق هتاف سعد بن عبادة "منا أمير و منكم أمير" يقول: لم يقتله الجن كما زعم المسلمون و جاء في كتب الأحاديث و التاريخ بل قتلته السياسة[31] و لكنه لا يقدم للقارئ الشواهد و لا يقيم عليه الدلائل و البراهين. عندما استوى على عرش وزارة المعارف جعل هدفه و غرضه غرس بذور الشكوك و غيرها في قلوب أبناء المسلمين عن طريق المناهج الدراسية وكتب الثقافة.

عندما تقلد الدكتور المنصب في لجنة الثقافة بالجامعة العربية أخذ في ترجمة و إحياء التراث الغربي واليوناني والفكر الغربي واليوناني بالخصوص التراث اليوناني الذي يعتبره سُلما اتخذه الغرب للوصول إلى ذروة الكمال. لقد هبّ الدكتور طه حسين أن يشرح و يفسر منهج ديكارت غير مرة في كتبه تفسيرا مستفيضا: و هو أن يتجرد الباحث من كل شيئ كان يعلمه من قبل و يخلي ذهنه من كل شيئ من المعلومات يحملها في صدره خلوا تاما.[32]

---

[31]-"حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، ج 1، صـ263.
[32]- كتاب العصر تحت ضوء الإسلام ـ أنور الجندي ـ صـ32

لقد استعرض هذه النظرية الخاطئة و علق على هذا الأستاذ محمود محمد شاكر فقال: "إن ادعاء طه حسين أن القاعدة الأساسية في منهج ديكارت أن يتجرد الباحث من كل شيئ يعلمه من قبل، و أن يستقبل بحثه خالي الذهن خلوا تاما مما قبل فإن هذا شيئ لا أصل له و تكاد تكون هذه الصياغة كذبا مصفى، بل هو خارج عن طوق البشر.

هبه يستطيع أن يخلي ذهنه خلوا تاما مما قبل و أن يتجرد من كل شيئ كان يعلمه من قبل، أ فيستطيع هو أيضا أن يتجرد من سلطان اللغة التي غذي بها صغيرا حتى صار إنسانا ناطقا؟ أ فيستطيع أن يتجرد من سطوة الثقافة التي جرت منه مجرى لبان الأم؟ أ فيستطيع أن يتجرد من بطشة الأهواء التي تستكين ضارعة في أغوار النفس و في كهوفها كلام يجري على اللسان بلا زمام يضبطه، محصوله أن يتطلب إنسانا فارغا خاويا مكونا من عظام كِيست جلدا؟[33]

لقد عرض الدكتور طه حسين نظرية جائرة بأن اللغة العربية هي ملكية العرب ولغتهم و هم أحرار فيها ومن حقهم أن يعملوا فيها كما يشاؤون، إن هذه الدعوى قد بطلت و ذلك أن اللغة العربية إن كانت لغة العرب قوميا فهي لغة الثقافة والعقيدة و الدين لأكثر من ألف مليون مسلم.

---

[33] كتاب العصر تحت ضوء الإسلام ـ أنور الجندي ـ صـ32

و من جانب لعب دورا ملموسا في إحياء "إخوان الصفا" و دعا متحمسا إلى اعتبار كتاب "الأغاني" و "ألف ليلة و ليلة" مرجعين للبحث الاجتماعي.

الفصل الثالث

أسلوب الكاتب و القيمة الأدبية للكتاب"حديث الأربعاء"

أسلوب الدكتور طه حسين أسلوب نقي، و حديث ممتع ساحر، و نهج جديد في النقد، عاطفة لا حد لها، بهذ الأسلوب الصافي السلسال طلع علي الناس، فبهر به أبصارهم و فتن قلوبهم وأسر لبهم، و هو خير من شرح الشعر الجاهلي القديم في كتابه "حديث الأربعاء" شرحا عذبا سهلا حببه إلى الشباب و رغبهم فيه ، رغم ذلك كله لم يجد الدكتور طه حسين المفر و الملاذ من النقاد و ذهبوا فيه مذاهب و وزنوا أسلوبه في كفة الميزان و وضعوه على محك التمحيص و التدقيق قال فيه أحد من كبار النقاد: إن أسلوبه مليئ بالتكرار و الإسهاب الذي يصل في بعض الأحيان إلى حد الإملال و الاستثقال ليس لأسلوبه أناقة الزيات، ولا خفة المازني، و لا فكر العقاد، و لا حوار الحكيم، و لا واقعية أحمد أمين، و لا جمال أسلوب زكي مبارك[34].

مما لامراء فيه أن الألفاظ والكلمات رموز و أداة للمعاني تدل عليها و تشير إليها كما تكون إشارات الخرس ونظراتهم و حركات وجوههم يتفهّم بها الناس ولكن هذه الإشارات لاتكفي لهم و لا تغنيهم عن الكلمات و الألفاظ و لا تحتل إشاراتهم محل الكلام، رغم ذلك كله يتمكنون من إفهام حاجاتهم و إبلاغ ضروراتهم، لا

[34]- فصول في الثقافة و الأدب، صـ252

يخفى على الكاتب أن الكلمات و الألفاظ محصورة و محدودة وأن المعاني لا آخر لها و لا نهاية لها إذا أراد إبلاغ معنى أو مفهوم من رأس إلى رأس و نقله من شخص إلى شخص يلزم له أن ينتقي أشف الألفاظ عن المراد وأحكمها أداء للمقصود وأن يصتادها من بين المفردات و يقارنها و يفاضلها و يختبرها حتى يظفر بالمراد و المنشود لا تقصر عن المعاني و لا تعلو عليها إلا يكون الكلام أقل خيرا و أبعد منالا، و ماذا قيمة كلام الأديب لا يحمل المعنى المطلوب و الغرض المقصود منه؟، مثله كمثل المرء يرى في الضباب لا يفهم منه قارئه و لا سامعه.

فالإيهام و إبلاغ الفكرة من رأس إلى رأس و نقل العاطفة من قلب إلى قلب، غرض يطلب من الكتابة و لكن مجرد نقل الفكرة و إبلاغ المعنى إلى الآخرين ليس ذلك كله ما يُطلب من الكتابة، بل فوق ذلك درجات، درجة أدنى و درجة قصوى يتطلع إليها من الناس من يسميهم أنفسهم الشعراء و الأدباء، و قد فطر الناس على اختلاف طبقاتهم أنهم لا يرضون بالدرجة الأدنى و أودع الخالق في المرء ما يجاوزه إلى مستوى ما هو الأفضل فالأفضل، إنه لا يرضى من الطعام ما يقيم صلبه و يسد رمقه لا يزال يبغي الألوان في طعامه و شرابه، و لا يرضى من الثياب ما يقيه من الحر و البرد و مختلف الأجواء لا يزال يتمنى الزينة و البذخ، و لا يرضى من المساكن ما يقيه من المطر و الشمس و الضواري و إلا أبى أن يجملها و يزينها، و لا يرضى من المراكب ما يصل بها

إلـى المنـزل إلا أبـى أن يخلـع عليهـا الزينـة و الأناقـة، و لا يكتفـي بالأصـوات الكلاميـة التـي يتبـادل بهـا الآراء و يتعامـل بهـا فـي ضـروراته اليوميـة بـل يـأتي بتواليـف الألفـاظ يغنـي بهـا و يترنمهـا يتـرنح بهـا أعطافـه، إنـه لا يـزال يتطلـب المستوى القصوى.

كذلك من يسمي نفسه الأديب أو الكاتب يُطلب منه أن يرقى إلى مـا هو أفضـل و أعلى في فن الكتابة.

لا يلزم أن يكون المرء على حظ كبير من الثقافة و التهذيب حتى يطلب الفن فـي حياته، فإن الإنسان حيوان فني، و إنك لتجد الرجل الأمـي الكثيف للعقل يضـفر شعر حماره ويفرقه ويرسله على صفحتي عنقه و يزين سرجه و يركبه مترفقا و يمشي مختالا و ينـزل عنـه و يسـايره و يربتـه و يلاطفـه و يمسح لـه وجـه و قد تفيض نفسه بهجة و مسرة بمنظره الخـلاب فيقبلـه تقبيلا، و لـو أنـه لا يتخـذه إلا مركبا له يريحيه من عناء السير و السفر ،لو لم يكن اتخـاذه مركبـا لـه، لمـا كلـف نفسـه أن يحليـه و لمـا عُنـي بتجميل أدواتـه من سـرج و لجـام و غيـر ذلـك، فهـي عاطفة فنية ملكت على قلبه و استولت علـى لبـه و كـان مظهرهـا العنايـة بتجميـل مركبه.

و كل منا يريد أن يكون فنه أفعل باللب و أسحر للقلب و أملأ للعين و أوقـع فـي النفس، و لكن الكتابة لا تنقلب فنية من تلقاء نفسها، و إنما تصبح كذلك بما يجعله

المرء فيها من الصور و ما يتاح إليه من الإحسان و التجويد، "و يتحتم لذلك فيما نظن" من صحة النظر و سلامة الذوق، وصدق السريرة و الاستعداد، فان الألفاظ موجودة متوفرة، و هي مطروحة في طريقنا جميعا و على طرف كل قلم و لسان و لو أن العبرة كانت بالألفاظ لكان أكبر الأدباء هم جماعة اللغويين و الحفاظ.

هذا المثال يجري في كل فن من الموسيقى و الرسم و النجارة و ما إلى ذلك من الفنون، على سبيل المثال خذ صناعة النجارة مثلا، لماذا لا يستطيع كل نجار أن يكون ككل نجار،؟ ما السر في أن أحدا يخرج قطعة تدخل المسرة و البهجة في كل نفس و تحب أن تتعلق بها و تقف لديها كل عين، على حين يخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علما بالصناعة و دربة عليها ما لا يروقك و لايحل محل إعجابك من الأول.

نريد أن نوضح هنا أن فن الكتابة، ككل فن يتطلب استعدادا طبيعيا فطريا، و أنه - ككل فن أيضا- لا غنى عن الجمال فيه.

بعد ما ذكرنا من مزايا الكتابة الفينة و متطلباتها قد آن الأوان أن نقوم بتحليل أسلوب الدكتور طه حسين في كلمات الناقد القدير عبد القادر المازني، إنه يقول: " الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر، ذكي الفؤاد، جريئ القلب، تعجبك منه صراحته و تقع من نفسك رجولته و أنفته، و يعلق بقلبك إخلاصه و وفاؤه،

و يثقل عليك أحيانا اعتداده بنفسه، كما كان قد ألف أن يملي كتبه و رسائله و مقالاته، فإن كتبه و حديثه، حين يجد، في مستوى واحد، كائنا ما كان ذلك المستوى، فلست تفتقد في أحاديثه ما تجده في كتابه من الخصائص و الشيات، و يندر في غيره مثل ذلك، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام و أن يجعل الجمل قصيرة فلا تطول في أحاديثه ما بين أولها و آخرها، و أن يغري بالتكرير و الإعادة إلى حد ما، كما هو الشأن في الخطابة، و من هنا كان أسلوب الدكتور طه خطابيا، أو قُل إن الصبغة الخطابية فيه أغلب من الصياغة الكتابية، و خصائص تلك و ميزاتها أوضح، فهو في الأغلب و الأعم يوجه الخطاب إلى القارئ كما تفعل حين تحادث جليسا لك و يقصر جمله و يؤكد عباراته بالتكرير و الإعادة و يلتمس التأثير من طريق ذلك، حتى و أنت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة، و يومئ بإصبعه لما وصل إلى تلك إلى آخر ذلك، و الخطابة فن مختلف جدا من فن الكتابة، و أحسب أنه لو كان الدكتور قد ألقى هذه الرسائل و لم يكتبها، لما جائته إلا كما هي الآن، و من شاء أن يكون منصفا و أن يوفي كتابة الدكتور حقها و لا يعدو بها مكانها فلينظر إليها بهذه العين و ليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة." [35]

"إذن أخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ؟ و لا أراها إلا خطبا مدونة، ولست أريد أن أقف حتى هنا، بل أزيد على ذلك و أضيف إليه أنها خلت من مزايا الفنين

---

[35]- قبض الريح – إبراهيم عبد القادر المازنى- صفـــ28

جميعا، فأما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يمليها بشيئ من الإصلاح لخلت على الأرجح من أكثر ما فيها من التكرير و لعولج بعض ما يعتورها من العيوب، و لكنه لا يفعل، و قد صدق في قوله " إنى ما كتبت فصلا إلا و أنا أقدر أن سيُتاح لي من الوقت و فراغ البال ما يمكنني من استئناف تلك العناية و هذا النظر حتى إذا فرغت منه و نشرته السياسة عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزما أن أستأنف العناية به و النظر فيه مستحيا أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص و حاجة إلى الإصلاح، و الأيام تمضي ، و الظروف تتعاقب، مختلفة متباينة أشد الاختلاف و أعظم التباين، و لكنها كانت تحول دائما ما بيني و بين ما كنت أريد من تجديد العناية و استئناف النظر، و أي الكتاب والباحثين لا يشكو مثلي هذا في مثل هذه الأيام التى نعيش فيها؟، وأما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليها على أنها خطب تلقى بل أنها مقالات و فصول تُقرأ، و إن كانت طبيعة اعتياد الإملاء تجعلها أقرب إلى الخطب منها إلى الرسائل، متى كان هذا هكذا، فأي غرابة إذا قلنا إنها خالية مما لم يتحره فيها: أي من خصائص الخطب و مزاياها و كما أن الخطب تفقد كثيرا من قوتها و تأثيرها في نفوس الناس حين يقرؤنها، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرؤنها و لا يسمعونه يلقيها؟، و لا شك أن أظهر عيب في مقالات الدكتور هو التكرار و الحشو و ما هو منهما من سبيل، و عندنا أن علة ذلك ليست فقط يملي و لا يراجع ما يملي بل الأمر يرجع في اعتقادنا إلى سببين جوهريين أولهما أن

ما أصيب في حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه في الأسلوب الذي يتناول به موضوعاته، و في طريقة العبارة عن معانيه و أغراضه، و لسنا نتحرج أن نذكر ذلك، فإنه أعرف بنا أن يشك عطفنا، بل نحن أعلى به عينا و أسمى تقديرا من أن نعتقد أن به حاجة إلى هذا العطف، و ليس يخفى أن المرء إذا حيل بينه و بين المرئيات ضعف أثرها في نفسه، و لم تعد الكلمة الواحدة في إحضار الصورة المقصودة إلى ذهنه بالسرعة و القوة الكافيتين، فلا يسعه فيما نعتقد إلا الإسهاب و محاولة الإحاطة و معالجة الاستقصاء و التصفية، ثاني هذين السببين أنه أستاذ مدرس و قد طال عهده بذلك، و التعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط في الإيضاح و الأطناب في الشرح و التكرير أيضا، بل تفعل ما هو شر من ذلك، أعنى أنها تدفع المرء عن الأغوار والأعماق إلى السطوح، و بعبارة أجلى تضطر المدرس أن يجتنب التعمق و الغوص، و أن يكتفي- ما وسعه الاكتفاء- مما لا عسر في فهمه و لا عناء في تلقيه- و تلك آفة التدريس و لو أنى أعرف كلفه به و إقباله عليه و هشه له، لدعوت الله أن يريحه كما أراحني"[36]

يبدو أن الدكتور طه حسين قد أتى في كتاباته الاستخفاف بالشعائر الإسلامية حتى يقول الدكتور علي الطنطاوي في كتابه " فصول في الثقافة و الأدب" : "حتى كتابه الذي قلت عنه إنه من روائع الأدب " الأيام" فيه عبارة أخجل من الله

---

[36]- قبض الريح – إبراهيم عبد القادر المازنى- صفـــ28

أن أرويها وترتجف أعصابي خوفا من هذه الجرأة على الله، و لا أدري إذا بُدلت هذه العبارة أو عُدلت في الطبعات الجديدة من الكتاب و هي قوله: إن الصبي (يعني نفسه) أضاع ما كان معه من القرآن كما أضاع نعله".[37]

[37]- فصول في الثقافة و الأدب- علي الطنطاوي- الطبعة الأولى 2007- صـــ254

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

الفصل الأول : الشؤون الدينية و الاجتماعية بين طبقات الناس

الفصل الثاني: العصر العباسي كما نجده في "حديث الأربعاء"

الفصل الثالث: الوعاظ و الزهاد في قصور الخلفاء و مجالسهم

الفصل الأول

الشؤون الدينية والاجتماعية بين طبقات الناس

مما لا مراء فيه أن المجتمع في كل عصر من العصو ر يتكون من مختلف الطبقات و الفئات من الناس. لا بد للباحث الذي يريد أن يصل إلى نتيجة في ذلك المجتمع أن يتناوله بجميع الأطراف و يدرسه من كل ناحية من نواحي الحياة و إلا فلا يكون منصفا في نتيجته و استنتاجه من ذلك المجتمع في ذلك العصر. إذا دخل أحد حانات الخمر أو حضر مجالس الرقص و خرج منها مستنتجا أن العصر كله مجون و فيكون مخطئا في رأيه و استنتاجه، و إذا دخل زوايا الصوفيا و الزهاد و خرج منها مستنتجا أن العصر كله جد مليئ بالصلاح و الخير و التقى و الورع و الزهد و خشية الله يكون غير منصف في استنتاجه، و إذا دخل قصور السلاطين و الأمراء و الوزراء و بطانة الملوك و حاشيتهم و خرج منها مستنتجا أن الناس كلهم أثرياء و مترفون و أن العصر كله خليق بأن يوصف بعصر البذخ و الزينة و الثروة الطائلة و الرخاء الهائل يكون مخطئا في استنتاجه، و إذا دخل المستشفيات و زار المرضى و رأى بؤسهم و ألمهم و تعاستهم و ابتلائهم و استنتج مما رأى أن العالم كله مريض أو مليئ بالمرضى لا يوجد أقوياء و فرسان وأصحاب الصحة و سليم البنية، و كذلك دخل المعسكرات

فبهر بما رأى من القوة و البسالة و الشجاعة و الفروسية و الفتوة و قال أن العالم كله مكتظ بالأقوياء والباسلين و الشجعان لا يصيب في رأيه و استنتاجه و هلم جرا.

لا نبعد إذا قلنا أن الدكتور طه حسين إذا تناول طائفة من الشعراء الماجنين في العصر العباسي وتناول شعرهم و حياتهم بالدراسة و البحث و التمحيص – على الرغم من أن لحياتهم جوانب و نواحي مختلفة- خرج من خلال دراسته مستنتجا أن العصر كله مجون و إباحية و فحش و لهو، و أن الناس كلهم أو معظمهم كانوا ماجنين و لاهين لا يعرفون الجد و التأني، إنه لم يتناول في بحثه الطبقات الأخرى من العلماء و الفقهاء و الوعاظ و الزهاد و لم يدخل زوايا المساجد العامرة من أهل الورع و التقى و الرجال المحفوفين بهالة من الناس في يوم من الأيام، أو دخلها ولكن كان قد لبس منظار التعصب، و لم يزر عامة الناس الذين لا يجدون من المعيشة إلا ما يقيم صلبهم و يسد رمقهم و لا يعرفون من الحياة إلا الجهد و الكد في مزارعهم و مصانعهم حتى يملأوا جيوب الأمراء و السلاطين و بطانتهم و حواشيهم، و لم يعرفوا من الحياة مثلما عرف أبو نواس، و بشار و والبة الذين كان يصب عليهم الملوك و الأمراء من الدراهم و الدنانير و الصلات و الهدايا الثمينة و التحف الغالية، فأنى لهم أن يلهوا و يتمتعوا من الحياة مثلما تمتع الشعراء.

لم يتناول الدكتور طه حسين حياة الفقهاء و المحدثين و الوعاظ في ذلك العصر العباسي الذين بذلوا جهودا جبارة في إنقاذ النفوس من هوة المجون و اللهو و الإباحية ولم يحاول أن يعرف العصر العباسي من خلال حياتهم و لا من خلال ثروة الفقه و الحديث تركوها وراءهم ، إنه حضر مجالس الشعراء في قصور السلاطين و لكن لم يزر المجالس التي ينصح فيها الوعاظ من أمثال ابن سماك و فضيل بن عياض إلا و قد خرج من العصر العباسي مستنتجا بأنه عصر الشك و المجون، و سوف نأتي في الصفحات التالية بذكر الطبقات التي لعبت دورا ملموسا في إثراء العصر العباسي و تزكية النفوس السوداء و إنقاذ الناس من هوة المجون و اللهو حتي يتجلى أمام قراء العصر العباسي، لا كما حاول الدكتور طه حسين أن يعرض من طرازه.

قد ألصق الدكتور طه حسين التهم و الأباطيل بجميع الطبقات دون أن يميز بين طبقة و طبقة، دون أن يأخذ الظروف والأوضاع التي كانت شائعة في ذلك العصر في الاعتبار. و الجدير بالذكر هنا أن نبسط القول في المظاهر الاجتماعية التي قد شاعت في ذلك العصر من حضارة و ثراء، ترف و بذخ و أناقة، و كيف نفقت تجارة الرقيق و الجواري و الغلمان و شاع الغناء و ما وصلت إليه الحياة من مجون و إباحية و ما انتشر من انحراف ديني كالشعوبية و الزندقة، و في مقابل هذا كله كانت هناك طائفة كانت قد اتخذتها طريقها إلى

الزهد، و مالت إلى الورع و التقى و ابتعدت كل البعد عما غاص فيه الناس من ترف و مجون.

لما و جدت العرب تلك الحضارات المختلفة حاكوها و قلدوها في نظمهم المختلفة و تسرب تأثير هذه الحضارات المختلفة إلى الأدب و اللغة و الترجمة و قد سجلت لنا كتب التاريخ و الأدب من أخبار الخلفاء و السلاطين و الأمراء و الولاة وما كانوا عليه من ثراء و رخاء، فقد كانت حمول الذهب و الفضة تحمل إليهم من أطراف الأرض حتى دخل بيت المال في عصر الرشيد نحو سبعين مليونا من الدنانير، وكانت هذه الأنهار المتدفقة من الأموال تصب في حجور الخلفاء و كان حولهم من الوزراء و القواد و الولاة و الشعراء و المغنين.

و نقص هنا أمثلة لهذا الثراء و الترف فقد روي أن المنصور فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام.

و كان الخلفاء والوزراء و الولاة يمطرون على العلماء و الأطباء و الشعراء والمغنين الدنانير و الدراهم، و قد أعطى المهدي لمروان بن أبي حفصة مائة درهم ذائع مشهور، و قد أعطى الرشيد سلما الخاسر بعشرين ألف دينار مكافأة لمدائحه فيه. و نافس الوزراء في ذلك الخلفاء وكان للبرامكة في هذا يد طولى، و كذلك الفضل بن الربيع و بنو سهل، و اتبعهم في ذلك القواد أمثال معن بن زائدة، و يزيد المهلبي، محمد الطوسي، وآل طاهر.

و كان لهذه السيول المتدفقة من الأموال أثرا بالغا في نهضة العلوم و الآداب و الفنون المختلفة، و اندفع الأثرياء إلى الثراء في الحياة و الأسباب المادية من دور مزخرفة و فرش وثيرة و ثياب أنيقة معطرة و مطاعم و مشارب من كل لون و ما إلى ذلك من أدوات الزينة و الملابس، و كان حظ النساء من هذا الترف كبيرا فالحلى و العطور و العنبر كانت منثورة بين أيديهن. و إذا كان الترف قد انتهى إلى هذا الحد فقد كان مقتصرا على طائفة معينة من الأمة، بينما توجد طبقات أخرى تعانى مرارة البؤس و شقاء الحياة، و لعل هذا كان أحد الأسباب في الثورات الكبيرة المختلفة ضد العباسيين.

و لم تكن مجالس الخلفاء و محافلهم إلا صورة رائعة من صور الترف و الرخاء في ذلك العصر و ما تحمله في طيه من ذهب و فضة و غناء و نوادر و ما إلى ذلك من سبيل إلى المتعة، و هناك توجد ظاهرة اجتماعية في العصر العباسي الزاهي تسترعي منا الانتباه و الوقوف ألا و هي كثرة الجواري و الرقيق كثرة مفرطة، و انتشار الغناء و شيوعه، و لم تكن هذه الكثرة المفرطة في تجارة الرقيق إلا بسبب من كانوا يقعون أسارى في الحروب حتى كان في مدينة بغداد شارع يسمى شارع الرقيق، و كان الرقيق يستقدمون من بلاد الزنج و إفرقية الشرقية و الهند و أواسط آسيا. و كانت هذه التجارة معروفة و موجدة في العصر الأموي، و لكنها ازدادت في العصر العباسي حتى أصبح ملأى بها الدور و القصور، و كان رقيق النساء أكبر عددا من رقيق الرجال، و كانت الجواري من

مختلف الأجناس و الثقافات و الديانات، و قد امتلكن أثرا بعيدا امتد إلى قصور الخلافة و دور الولاة، و قد أنجبن عددا كبيرا من أبناء الخلفاء الذين تربعوا فيما بعد على عرش الخلافة، و كانت القصور مكتظة بالجواري والوصيفات ، و لم يكن الوزراء قد تخلفوا من الخلفاء بل تبعوا في ذلك سنتهم و انتهجوا منهجهم و كانت كثيرات من الجواري يُدربن و يُثقفن بمختلف الفنون و الآداب بل كان منهن يتفوقن الكثير من الرجال في إجادة نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي و سكن جارية محمود الوراق.

و كان حظ الغناء في حياة العباسيين كثيرا، فقد شُغلوا به أيما شغل، و كأنه نعيمهم من الدنيا، و قد سافر الغناء من الحجاز إلى العراق في أواخر عصر بني أمية و أنشئت لها الدور و القصور الزاخرة الكبيرة في العصر العباسي و صبت الأموال على المغنين و المغنيات صباً، كان إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، ابن جامع، و مخارق، و قد طبق صيتهم في الآفاق، و قد عظم شأن هذا الفن و وصل رقيه إلى هذا الحد أن أكب أبناء الخلفاء و رؤوس القوم على تعلمه و إتقانه و إجادته، و كان الغناء محركا كبيرا و عنصرا أساسيا في ارتفاع أثمان الجواري المغنيات، و قد ساعدت القيان و الجواري على أنواع كثيرة من ضروب الرقة و الظرف، و قد سبب ذلك أثرا بالغا في الشعر و الشعراء، فذاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة و اللمحة المعبرة.

و بجانب الثراء والرقيق و الغناء تصادف انتشار المجون وشرب الخمر و الغزل المكشوف و الغزل بالغلمان و المذكر و ما إلى ذلك مما يسيئ إلى الأخلاق الإسلامية العطرة و كان من أهم دواعي هذا الانحلال الخلقي ما أطاحته الثورة العباسية للناس من حرية مسرفة استغلها الفرس في شرب الخمر و إدمانهم عليه و تبعهم الناس في ذلك حذوا بحذو و نعلا بنعل و كان من عوامل انتشار شرب الخمر ما اجتهد بعض الفقهاء بتحليل بعض الأنبذة كنبيذ التمر والعسل، و تهاتف الناس على إدمان الخمر تهاتف الظمآن على الماء البارد حتى يقال إن الهادي و الرشيد و الأمين من الخلفاء البارزين قد تناولوها بالشرب سواء أ كان هذا المشروب من الضرب الذي قام الفقهاء بتحليله أم لا، و اندفع إليها الشعراء و المغنون اندفاع السيول، و خمريات أبو نواس أشهر من أن تذكر، و قد تفنن الشعراء في أشعارهم في وصف نشوتها و أثرها في الجسد و العقل و تفننوا في وصف دنانها و مجالسها و ندمائها و سقاتها، و كانت حدائق مدينة بغداد و منتزهاتها تكتظ بالحانات التي يتردد إليها الشعراء و غيرهم من الفتيان.

و مما لا مراء فيه أن إدمان الخمر وقتذاك أدى إلى كثير من العبث و اللهو و المجون والإباحية و كان المجتمع يزخر بزنادقة و ملاحدة، و أناس من ديانات شتى مجوسية و غير مجوسية، و جعل الكثيرون يطلقون لأنفسهم الحرية الكاملة

و لا يمنعهم وازع الدين أو الأخلاق أو القانون، كما أوصل هذا الفساد المنتشر إلى الغزل المكشوف الذي تنتهك فيه كرامة الرجل والمرأة معا.

وكان مطيع بن إياس و بشار بن برد من أكبر الشعراء و أشهرهم الذين أطلقوا لسانهم في الغزل المكشوف وكما عمت آفة الشغف بالغلمان و كان أول من وقع في هذه الفضيحة و اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب و تبعه أبو نواس في ذلك.

من يتصفح هذه الأوراق معي يظن أن العصر العباسي و المجتمع العباسي كان مجتمعا منحلا و ألقي نفسه في هوة الشهوات و الملذات و الإلحاد- كما زعم الدكتور طه حسين في كتابه " حديث الأربعاء"- فمن ترف إلى غناء، من إباحية إلى زندقة و إدمان للخمر.

مع ذلك كله نستطيع أن نقول إن هذه الظواهر الاجتماعية إنما تعششت و باضت في طبقة معينة دون بقية الطبقات، فالإلحاد و الزندقة كانت مقتصرة في معظم جمهورها على الفرس، والمجون و الإباحية كانت شائعة بصفة خاصة في طبقة المترفين و الأثرياء و من كان حولهم من الشعراء، أما عامة الشعب لم تكن في شيئ من المجون و الزندقة، و إذا كانت حانات الكرخ قد ملئت بالجواري و القيان و المغنين، فإذا مساجد مدينة بغداد معمورة بالعباد و النساك، و أهل التقوى و الخير والصلاح. و كان بكل ركن من أركان المساجد حلقة لواعظ

يذكر بالله و اليوم الآخر و يزكي القلوب، و كان بعض الوعاظ يجتاز قصر الخلافة ليعظ الخليفة و ينصحه من أمثال عمرو بن عبيد، و صالح بن عبد الجليل، ابن سماك، و كان الوعظ مزودة بالقصص لأخذ العبرة و العظة.

و كان بإزاء الوعاظ عدد لا بأس به من النساك الذين ابتعدوا عن ملذات الدنيا، و عاشوا حياة كلها تبتل و عبادة زهد في الدنيا، و في الكتب من أمثال البيان و التبيين و عيون الأخبار و العقد الفريد منثورات منقطعة النظير لأقوال مشاهير من أمثال سفيان الثوري و عبد الله بن المبارك و الفضل بن عياض و سفيان بن عيينة و غيرهم من الصلحاء.

و قد نشأت حركة الزهد في العصر العباسي الأول كردود فعل على تلك الحياة اللاهية التي لا تعني بعبادة و لا تعبأ بطاعة، و لكن التصوف الإسلامي لم يكن قد نضج في هذا العصر إنما نضج و اكتمل في العصر القادم، و أخذت مقدماته في الظهور في هذا العصر.

و هكذا كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي صراعا عنيفا بين الترف و الزهد و بين المجون و العبادة و بين الخلاعة و الورع، و بين الفساد و الصلاح، إلا أن المجون و الإباحية و الترف و الرخاء و الزندقة و الشعوبية كانت ظاهرة عامة في الطبقة الأرستقراطية من المجتمع، أما عامة الناس فكانت تعيش حياة

هادئـة مطمئنـة مبتعـدة كـل البعـد عـن التـرف لـم تكـن فـي شـيئ مـن الزندقـة و الانحراف الخلقي.

و كما كان الشعر العباسي حافلا بشريط من الأحداث السياسية، و كانت صورة صادقة للحياة الاجتماعية فيه، فتجد صورة متناقضة في هذا الشعر، فكان أبو نواس و أضرابه يمثلون المجون و الخلاعة و الإباحية و الانحلال الخلقي و كان أبو العتاهية وغيره من شعراء الزهد يمثلون العفة و التقوى، و صور كل من الطرفين حياته التي كان يعيشها و دعا الناس متحمسا أن يعيشوا مثله، فأبو نواس يدعو إلى الخمر و مجالس الغناء، و أبو العتاهية يدعوا إلي العمل الصالح و نبذ الحياة الزائلة.

مهما قيل من شك أو زيادة حول مجون أبي نواس أو زهد أبي العتاهية فإنهما يمثلان على الأقل صورة للمجتمع و ما يجري فيه، و يعبران عن حياة متناقضة يعيشها أفرادالمجتمع العباسي.

قد سبق مما ذكرنا في الصفحات الماضية أن الدكتور طه حسين كان لعبة في أيدي المستشرقين يلعبون بها أو قُل كان مستشرقا في زي المسلم المصري ينطق بلسانهم و يعبر عما كان في رؤوسهم الشيطانية من فتن و فساد و إثارة للشبهات حتى يقع المسلم الساذج فريسة لمؤامراتهم و دسائسهم. تراه في معظم الأحيان يلتقط الأشعار الإباحية، و الشعراء الماجنين لكتابه " حديث الأربعاء"

حتى تكون صورا صادقة للعصر العباسي، كأنه لم يجد من العصر العباسي الطويل إلا هؤلاء الماجنين للتعبير عن الحياة العباسية و المجتمع العباسي، و كيف تجاهل الجوانب الحميدة للعصر العباسي التي تصلح للجيل الناشئ، ولا يجد عارا و لا قبحا و لا يشعر خجلا في أن يقدم الصور الخليعة الراقصة التي يزعمها أنها هي الصورة الصادقة للعصر العباسي ولا يفهمه الطالب إلا عن طريق هذه الصور الخليعة.

في الواقع هناك كان الشعراء الماجنون في العصر العباسي مثل والبة بن الحباب، و بشار و أبو نواس و مطيع بن إياس، و لكن كان في نفس المجتمع العباسي و العصر العباسي الشعراء المتصفون بالزهد مثل أبو العتاهية، و عبد الله بن المبارك، و محمود حسن الوراق، و العلماء من أمثال الإمام الشافعي، و الأوزاعي، وعمروبن عبيد، و صالح بن عبد الجليل، و ابن السماك، و الفضيل بن عياض، لو حضر الدكتور طه حسين مجالس هؤلاء العلماء الصالحين في قصور الخلفاء و تناول زهديات عبد الله بن المبارك و أبي العتاهية لجاءت الصورة الاجتماعية للعصر العباسي تختلف تماما عن الصورة التي قدمها في كتابه " حديث الأربعاء".

الفصل الثاني

العصر العباسي كما نجده في "حديث الأربعاء"

في معظم الأحيان قد أخذ الدكتور طه حسين ببنان القراء إلى الشعراء في قصور الخلفاء و مجالسهم، و لكن لم يكن قد أخذ ببنانهم إلى الوعاظ و الزهاد في قصور الخلفاء و مجالسهم، لعل ذلك لا يخدم أغراض المستشرقين الذين حمل لوائهم طه حسين، لو كان قد زار الوعاظ في قصور الخلفاء ومجالس الخلفاء لتبين له عكس ما قدم في كتابه " حديث الأربعاء" و اتضح له أرائه الخاطئة الباطلة.

يقول الدكتور طه حسين في كتابه " حديث الأربعاء" : "إن هؤلاء الخلفاء و مشيريهم كانو يحيون حياتين مختلفتين: حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين و مجده و عظمة الخلافة و قوتها السياسية، فهم من هذه الناحية محافظون، وحياة لأنفسهم، و لخلصائهم في القصور و من وراء الحجب، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية، فيلهون و يلعبون و ينادمون و يشربون و يقترفون ضروبا من الآثام".[1]

و لكن يبدو هناك تناقض هائل في قول الدكتور طه حسين و رأيه، من جانب يقول الدكتور: أن الشعراء المجان من أمثال أبي نواس و والبة بن الحباب و

[1]- "حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، الطبعة الرابعة عشر، ج 2، ص: 11،

بشاربن برد يعبرون الحياة الاجتماعية في العصر العباسي أصدق تعبير و أكثر من الفقهاء و المحديثن والرواة و المتكلمين، يقول في كتابه " حديث الأربعاء" : " و لكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة، تحكم بها عليه حكما صادقا، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء و الكتاب أكثر من رجوعك إلى هولاء الفقهاء و المتكلمين و الرواة، لأن الشعراء و الكتاب يمثلون الجماعة حقا، و يعبرون عن أهوائها و ميولها، ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة".[2]

إذا كان الأمر كما قال الدكتور طه حسين أن الرعية كانت على ملة الخلفاء في اللهو و اللعب و المجون و تمشي مشيتهم، فما أجبر الخلفاء أن يعيشوا حياتين: حياة للشعب و حياة لخلصائهم من القصر؟، فماذا كان يخيفهم أن يظهروا بزيين مختلفين؟، و ماذا كان يرعدهم أن يعيشوا حياة النفاق؟.

إذا كانت حياة الخلفاء كما قدم صورتها الدكتور طه حسين- أنا لا اتفق برأيه- فمعنى ذلك أن معظم الناس كانوا على الصلاح و الخير و التقوى والخشية لله، ينكرون الحياة التي يعيشها الشعراء المجان، و يكرهون حياة اللهو و اللعب و الشك والمجون، يجتنبون محافل الرقص و الغناء و القمار و تعاطي الخمر، و ينفرون من ارتكاب المنكرات و المعاصي، و يبتعدون كل البعد عن الآثام و

[2]-"حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، الطبعة الرابعة عشر، ج 2،ص:35 ،

الذنوب، لذلك كان الخلفاء يخافون علي سلطانهم، وكان هناك صراع مستمر بين الفقهاء و المحدثين وبين الشعراء الماجنين و أن الدكتور طه حسين نفسه قد اعترف بهذه الحقيقة، إنه يسوق الحديث في هذا الصدد و يقول: " فقد كان أبو نواس محدثا روى عنه الشافعي، و كان مع ذلك فاجرا ماجنا يذيق المحدثين ألوانا من الأذى، و كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة، و ينكرون عليه فجوره مرة أخرى، و يشهرون عليه في دروسهم مرة ثالثة"[3] .

لا نغلو إذا قلنا أن الخلفاء أنفسهم لا يحبون هؤلاء الشعراء المجان، مهما كانت العوامل تختلف، و الأسباب تتغير، لو لم يكن ذلك لما حُبس بشار على يد المهدي و ضُرب ضربا مبرحا حتى مات، ولم يكن سبب ذلك إلا أن الناس لا يحبون مجونه و آفته على النساء و الفتيات و الفتيان، و لم يكن قد حبس الأمين أبا نواس إلا أن الرعية يكره فجور هذا الشاعر الماجن، و اغتنم هذه الفرصة الذهبية أخوه المأمون الرشيد الذي كان يذكر منادمة الأمين مع أبي نواس، هذه الأحداث كلها يقدم الرصيد الكبير من الدلائل أن الشعب لم يكن يمشي مشية الشعراء المجان، ولم يكن يتخذهم نموذجا للحياة و أن هؤلاء الشعراء المجان يمثلون حياتهم و حياة طائفتهم من المجان و يعبرون عن حياتهم الماجنة اللاهية أصدق و أكثر مما يعبرون عن حياة الناس في العصر العباسي.

---

[3]-"حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، الطبعة الرابعة عشر، ج 2،ص:23،

كلما ساق الدكتور طه حسين الحديث عن مجون الخلفاء العباسيين ولهوهم،و ارتكابهم المعاصي، ساق الحديث عن مجون السلاطين اليونان وفرنسا و فجورهم و ركوبهم على الملذات و الشهوات، يقول: " لقد كان " أغسطس" و "نيبريوس" و "نيرون" كبار الكهنة في روما، لكنهم كانوا قياصرة أيضا، فكانوا يؤدون للدين حقه ، و كانوا للدينا حقها". و يضيف قائلا : و لقد كان لويس الرابع عشر و الخامس عشر مظهرا لقوة المسيح في فرنسا، لكنهما كانا في الوقت نفسه مظهرا لسلطان الفرنسيين، و ثروة الفرنسيين، و مجون الفرنسيين، فكانا يصليان و كان يعبثان".[4]

و هذا يكون من العسف أن تقاس حياة رجل على حياة رجل آخر، و يوزن تاريخ أمة في كفة تاريخ أمة أخرى، حاول الدكتور طه حسين تطبيق سيرة السلاطين الفرنسيين على سيرة الخلفاء العباسيين مع أن لكل أمة معطيات و مؤثرات تلعب دورا رائعا في تشكيل تاريخها و حضارتها.

و قد أصاب الأستاذ رفيق العظم حينما قال: "أن ما نسب إلى الخلفاء العباسيين من المجون و اللهو و الإباحية يستدعي التمحيص و الحذر، و قد كثرت الأطماع و تشتت الفرق و الشيع اختلقوا الأكاذيب و الأباطيل، و يعرف كل حافٍ و منتعل ولاء الفرس للعلويين و بغضهم لبني العباس و الخلفاء العباسيين الذي كانوا يضمرونه في قلوبهم فظهر ذلك على أفواههم في صورة الأخبار المختلقة.

---

[4]-"حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، الطبعة الرابعة عشر، ج 2،ص: 67

حقا يقول الأستاذ رفيق العظم: إن الحقائق التاريخية، لا سيما في تاريخ الإسلام ، تشبه الدرر الملقى بين أشواك، يريد مريد استخراجه من تلك الأشواك، إلى أناة و روية و نظر في وجوه السلامة من أذى الشوك. و لا نريد أن نذهب بعيدا في مذاهب الشك التي ذهب إليها الأستاذ، إنما يكفي أن ننبه بما نقول- وهو العليم- إلى ما عاناه رواة الحديث، و نقلة الأخبار النبوية في تمحيص في تلك الأخبار و تنظيفها من شوائب الوضع المكذوب، و لا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ، و كانت تعمل للسياسة باسم الدين، و تضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية، و إن كان فيه مساس بالدين و تشويه له، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة ، و انتساب إلى صاحب الشرع، فما بالك بأخبار الخلفاء و وقائع التاريخ و أخبار الناس. نقرأ شيئا في التاريخ و شيئا في كتب القصاصين، عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية و السياسية على الأصح، في عصور المحنة التي مرت على المسلمين، نقرأ في كتب التاريخ أخبارا نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية، و أخبارا نسبها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس، هي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت، كانوا في مثل مرتبتهم من العزة و المنعة و بسطة الجاه و الملك، و كان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق و السيرة في المنزلة التي أنزلهم إليها الوضاعون، و يدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض و الشهرة الذائعة في التاريخ. و نقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوبا إلى الخلفاء و أهل العلم

و الأدب. فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب و الأقاصيص، اعتبرناها أخبارا صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب الاختلاق و التفليق، لكان لنا مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى، التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد".[5]

لم يرد الدكتور طه حسين على أسئلة الأستاذ رفيق العظم ردا منطقيا سليما بل لجأ في إجابته عليه إلى أسلوبه الخطابي و إلى التهمة الباطلة و زعم أن أمثال رفيق العظم ينظرون إلى المتقدمين نظرة تقديس و تمجيد، و هكذا جعل رأيه و نظريته في خلدون و زعم أنه يخدع نفسه في الرشيد حينما قال : "إن الرشيد أمضى خلافته بين حج و غزوة.

إنه لم يخبر ما هي الوثائق ووسائل المعلومات التي عثر عليها أثناء بحثه وجعلته أكثر ثقة من ابن خلدون، بل يقول: " لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم و كثير من العلماء المعروفين في الشرق، يسبغون على التاريخ الإسلامي صفة من الجلال و التقديس الديني، أو يشبه الديني. و تحول بين العقل و النظر فيه نظرا يعتمد على النقد و البحث العلمي الصحيح، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب و جلال خطرهم و تقديس مكانتهم ، و هم يضيفون إليهم كل خير، و ينوهونهم عن كل شر، و يصفونهم بجلائل الأعمال، و يرفعونهم عن صغائرها".[6]

---

[5]-"حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، الطبعة الرابعة عشر، ج 2، ص: 59.
[6]-"حديث الأربعاء" للدكتور طه حسين، الطبعة الرابعة عشر، ج 2، ص: 63.

هناك نأخذ ببنان القراء الكرام إلي مجالس الزهاد و النساك و أهل القلوب في قصور الخلفاء العباسيين لعلها نسيها أو تناساها الدكتور طه حسين.

الفصل الثالث

الوعاظ و الزهاد في قصور الخلفاء و مجالسهم

مما لا جدال فيه أن النثر لم يكن قد وقف جامدا متحجرا في الحياة العباسية و العصر العباسي بل شارك فيها كما شارك الشعر مشاركة فعالة و لا نبعد إذا قلنا إن النثر فاق الشعر في المضمار لأنه كان المنبع الصافي السلسال الرقراق و المنهل الفياض استمد منه شعر الزهد نزعة الزهد.

للنثر الديني حديث طويل لا ينفد، قد نشأ و ترعرع النثر الديني إبان القرن الأول الهجري في البصرة، و مصر، و الكوفة ، و الشام، و كانت في هذه الفترة الذهبية المواعظ و النصائح و الإرشادات التي كانت تلقى في مساجد الأمصار يقصد به الوعاظ تخفيف غلواء النزعة المادية التي أخذت تزحف و تغزو المجتمع وقتذاك ، وتعددت الممالك التي كان يفتحها المسلمون يوما فيوما، و كثرة الأموال التي كانت تنصب في المدينة و مكة و الشام، الأمر الذي تسبب عنه نشاط الغرائز البشرية و ازدياد الرغبات الحيوانية، و بالتالي انصراف الناس إلى شؤون العاجلة تاركين ورائهم شؤون الآجلة.

و كان الوعاظ يتحدثون عن زوال الدينا و صغار شأنها و عن الموت و ما يكون ورائه من جزاء و عذاب و عقاب للعصاة و الطغاة و المذنبين أو ثواب عظيم، و

نعـيم دائـم للصـالحين و التـائبين المخلصـين و المـؤمنين القـانتين، و مثـل هـذه المواعظ و النصائح كانت تؤثر في نفوس القارئين أو السامعين أبلغ تأثير.

و قد خطا هذا الوعظ الخلقي في أواخر القرن الأول و أوائل القرن الثاني خطوة محمودة نحو التطور و التقدم ، فقد عرف ذلك باسم " فن المقام" الذي كان ينصح فيه الزهاد و النساك الخلفاء و الأمراء و السلاطين، و تطور النثر الديني أيضا تطورا هائلا، تعددت أغراضه و صوره و تنوعت طرق التعبير فيه، قد صار النثر في هذه الفترة طريقة للتعبير عن الآراء الصوفية ذات الضجة الفكرية حول سلوك الإنسان و سيرته الظاهرة و الباطنة تجاه الدنيا و نحو الله.

و يمكننا أن نقول أنه قد تطور النثر الديني في هذا القرن عما كان فيه من قبل من حيث عمق المعنى و جودة الأسلوب و براقة التصوير و قوة التأثير و صدق القول، و قد تشعب من فنونه في ذلك العصر المناجاة ، و الحكمة و القصة، و الرسائل و غيرها.

خلاصة القول أن النثر الديني له باب واسع عريض طويل الغاية و للزهاد فيه الكثير من الأدب العالي و الذوق الرفيع تناولوا فيه دقائق الحكمة و التجربة و أعمق مشاعر الإنسان و هو خلاصة عقول مؤمنة و قلوب طاهرة أشربت نفوسها حب الله و اللهفة و الحنان إلى حضرته الإلهية و شهود رؤيته و كل ذلك يعد أدب الروح والوجدان.

هناك "فن المقام" هو نوع من أدب الزهد ظهر في أواخر القرن الأول الهجري و أوائل القرن الثاني حينما اتجه به الزهاد إلي وعظ الخلفاء و المثول بين أ يديهم حتي يلقوا نصائحهم و وصاياهم في الترغيب و الترهيب و اشتهر من هؤلاء عمرو بن عبيد، و الأوزاعي، و صالح بن عبد الجليل، وابن السماك و غيرهم كثيرون.

عمرو بن عبيد

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب المتكلم الزاهد الشهير مولى تميم و كان جده "باب" من سبي كابل من جبال السند، أما أبوه فكان من شرطة الحجاج، و من طريف ما يروى: أن الناس كانوا إذا رأوا عمروا مع أبيه قالوا: هذا خير الناس ابن شر الناس، فيقول أبوه صدقتم.[7]

و قد تتلمذ على الحسن البصري الزاهد الشهير و لكنه اعتزل مجلسه هو و جماعة من أصحابه فسُموا المعتزلة، و كان كثير العبادة، شديد الورع، يرى بين عينيه أثر السجود و قد قال فيه الحسن البصري: إنه رجل كأن الملائكة أدبته، و كأن الأنبياء ربته، إن قام لأمر قعد به، و إن قعد لأمر قام به، و إن أمر بشيئ

[7]- وفيات الأعيان، ج 3، ص103

كان ألزم الناس له، و إن نهي عن شيئ كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن عنه، و لا باطنا أشبه بظاهر منه.[8]

و هو أحد كبار العلماء و الوعاظ، كثير التأليف و له رسائل و خطب، و كلام كثير في العدل و التوحيد و غير ذلك، و كان حي القلب ذكي الفؤاد يعظ فيجيد الوعظ، ثم لا يخشى في وعظه خليفة أو أميرا يحتقر عطاياهم و يعتز و يعلو بنفسه على نفوسهم و ينفذ بموعظته إلى قلوبهم فيبكيهم ثم يلحون عليه في أن يغشى مجالسهم و يتردد عليهم فيأبى و يفر منهم، روي أنه لما دخل على المنصور فأجلسه بجانبه و طلب إليه أن يعظه فوعظه بمواعظ، و لما أراد عمرو النهوض قال له المنصور أمرنا لك بعشرة ألاف، قال: لا حاجة لي فيها، قال أبو جعفر والله لتأخذنها، قال عمرو و الله لا آخذنها، فقال أبو جعفر: هل لك من حاجة يا أبا عثمان، قال نعم ، قال، و ماهي؟ قال، أن لا تبعث إلي حتى آتيك، قال إذا لا نلتقي، قال هي حاجتي، و مضى و أتبعه المنصور طرفه و أنشد[9]،

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد

غير عـمــرو بن عبـيــد

---

[8]- وفيات الأعيان، ج 3، ص103

[9]- مروج الذهب، ج 3، ص 239.

طلبه المنصور مرة إلى مجلسه، فقال لرسول الخليفة - و كان وقتذاك في المسجد مع أصحابه- قل لصاحبك دعنا نجلس في هذا الظل و نشرب من هذا الماء البارد حتى تأتينا آجالنا في عافية[10].

و كان لا يخشى في الله لومة لائم، فيقال أنه خون عمرو بن العاص، و معاوية بن أبي سفيان، و نسب إليهما تهمة سرقة مال الفيئ[11].

يقول عنه النظام: كان عالما عاملا عابدا ذا بيان وعلم و صاحب قرآن. [12]

لفضله و تبحره في العلوم الإسلامية كان المنصور يخضع لوعظه و يصغي سمعه إلى نصحه و لما مات رثاه المنصور بأبيات منها:

صلى الإله عليك من متوسد قبرا مررت به على مران

قبرا تضمن مؤمنا متخشعا صدق الإله و دان بالقرآن

لو أن هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمروا أبا عثمان[13]

لم يسمع من خليفة يوشي من دونه سواه، و كانت وفاته سنة 145هـ

موعظته للمنصور

[10]- المعزلة، ص234.
[11]- فجر الإسلام، ص 294.
[12]- ضحى الإسلام ج 3، ص98.
[13]- وفيات الأعيان، ج 3، ص 132.

لما دخل على المنصور قال له يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين و ولي عهد المسلمين و رجائى أن تدعو له فقال عمرو يا أمير المؤمنين: أراك قد رضيت له أمورا يصير إليها و أنت عنه مسؤول، فاستعبر أبو جعفر و قال له: عظني يا عمرو، فقال: يا أمير المؤمنيين إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها إن هذا الذي في يدك لو بقي في يد من كان قبلك لم يصل إليك فاحذر بليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده، و أنشد[14].

يأيهذا الذي قد غره الأمـــــل دون ما يأمل التنغيص والأجـــل

ألا ترى إنمـــا الدينـــا وزينتـــها كمنزل الكب حلوا ثمت ارتحـلوا

حتوفها رصد و عيشها نكـــــد صـفوها كـــــدر و ملكـــــها دول

تظل تقرع بالروعـــــات ساكنها فمـا يسوغ له لين و لا جـــــدل

كأنه للمنـــايـا والـــروع غرض تظل فيـه بنـــات الدهر تنتضـل

والنفس هاربة والموت يرصدها و كل عثرة رجل عنـــدها زلـــل

الأوزاعي

[14]-عيون الأخبار، ج 2، ص337/ مروج الذهب، ج 2، ص240.

هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي نسبته إلي الأوزاع بطن من همذان، كان فريد زمانه علما و إمام عصره زهدا و ورعا، ثقة مأمونا، صدوقا فاضلا، كثير الحديث و الفقة، شديدا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، أخذ العلم عن أجلة علماء و مشايخ اليمامة، حينما أقام هناك زمنا، منهم يحى بن كثير و غيره، جاءه اليقين ببعلبك عام 157هـ في آخر خلافة المنصور، و قد وعظ المنصور بكلام كثير[15].

هذه نصيحته القيمة لأبي الجعفر المنصور تحمل في طيه وعظ الحاكم و تخويفه من أهوال الناس يوم القيامة، يوم يفر المرء من أخيه و صاحبته و بنيه، و ترغيبه في العمل و الإصلاح في الرعية، و يقول فيها : "يا أمير المؤمنين إنك تحملت أمانة هذه الأمة و قد عُرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها و أشفقن منها، و أعيذك أن ترى أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال صلى الله عليه وسلم : يا صفية عمة محمد، و يا فاطمة بنت محمد، استوهبا أنفسكما من الله، فأني لا أغني عنكما من الله شيئا، و قد سأل جدك العباس إمارة من النبي صلى الله عليه و سلم فقال أى عم، نفس تحييها خير لك من إمارة تحصيها شفقة على عمه من أن يلي فيحيد عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا و لا عنه رفعا.

---

[15]- طبقات ابن سعد، ج 7، ص 185.

لقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة، فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرا، و لما استطاع من عوراتهم ساترا، و بالحق فيهم قائما، لا يتخوف محسنهم رهقا و لا مسيئهم عدوانا، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها و يردع عنه المشركين بها، فأتاه جبرئيل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي معك أتركها لا تملأ قلوبهم رعبا، فكيف بمن سفك دمائهم و قطع أستارهم و نهب أموالهم، يا أمير المؤمنين إن المغفور له من تقدم من ذنبه و ما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فهبط جبرئيل يا محمد لم يبعثك الله جبارا تكسر قرون أمتك، واعلم يا أمير المؤمنين إن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة و لا ثمرة من ثمارها، و لو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء و الأرض لأهلك الناس رائحته فكيف بمن يتقمصه، لو أن ذنوبا من صديد أهل النار صُب على أهل الدنيا لأجنه فكيف بمن يتجرعه، و لو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضعت على جبل لأذابته، فكيف بمن يسلك فيها و يرد فضلها على عاتقه"[16].

مما جاء في نصيحة أخرى للمنصور قوله: "روض نفسك لنفسك، و خذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السماوات و الأرض، يا أمير

[16]- عيون الأخبار، ج 2، ص 341.

المؤمنين: إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك و كذلك لا يبقى لغيرك، يا أمير المؤمنين: إن أشد الشدة القيام لله بحقه و إن أكرم الكرم عند الله التقوى"[17].

صالح بن عبد الجليل

كان صالح بن عبد الجليل ناسكا مفوها، و كان يلم بمجالس الخليفة المهدي و يعظه و يطيل في وعظه حتى يبكيه، حتى يذرف الدمع مدرارا، دخل على المهدي يوما و وعظه قائلا: "من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل، و أشد منه عذابا من أقبل إليه العلم و أدبر عنه و من أهدى الله إليه علما فلم يعمل به، فقد رغب عن هدية الله و قعد بها، فاقبل يا أمير المؤمنين ما أهدى إليك من ألسنتها قبول تحقيق و عمل لا قبول سمعة و رياء، فإنما هو تنبيه من غفلة، و تذكير من سهو"[18].

ابن السماك واعظ الرشيد

هو أبو العباس محمد بن صبيح السماك، و السماك نسبته إلي صيد السمك و بيعه،[19] وكان زاهدا وعابدا، محدثا و واعظا مؤثرا، فصيح اللسان و واضح البيان، نشأ بالكوفة و انتقل إلى بغداد زمن هارون الرشيد، فمكث بها مدة ثم رجع إلى الكوفة و بقي فيها حتى مات، و تنقل في كثير من الأمصار، و أخذ العلم عن كبار العلماء مثل هشام بن عروة و الأعمش و غيرها، و لفضله و

[17]- حلية الأولياء، ج 6، ص137.
[18]- العقد الفريد، ج2، صـ104
[19]-العقد الفريد، ج2، ص 104.

ورعه روى عنه الإمام أحمد بن حنبل و غيره، و قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال كان رأسا في الوعظ، وعظ الرشيد مرة فغُشي عليه[20]، ومات ابن السماك بالكوفة سنة 183هـ و من بليغ عباراته قوله:

عجبا لعيـــــــن تلذ بالرقـاد وملك الموت معه على الوساد[21]

وقال له هارون الرشيد يوما: عظني يا ابن سماك و أوجز، قال: كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين، فقد قال الله تعالى : ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ... " هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل فما ظنك بمن أخذه كله[22].

قال له مرة عظني و أتى بماء ليشربه، فقال يا أمير المؤمنين: لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملك، قال نعم، قال لو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملك، قال نعم، قال فما خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة.

و من عظاته للرشيد ايضا، قال: يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له، و اعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى أحدى منزلتين لا ثالث لهما، جنة أو نار، فبكى هارون حتى اخضلت لحيته[23].

---

[20]- ميزان الاعتدال، ج 3، ص 584.
[21]- حلية الأولياء، ج 8، ص203.
[22]- العقد الفريد، ج 2، ص 108

[23]- الطبري، ج8، ص357.

و من وصاياه الأخرى في غير هذا المقام فيها يصور هول يوم القيامة و أحوال الخلق، فيها قوله: "متى بلغ الواعظون أعلام الآخرة حتى والله لكل نفس ما علهيا واقعة، كأن العيون إليها ناظرة، فلا منتبه من نومه و لا مستيقظ من غفلته و لا مفيق من سكرته، و لا خائف من صرعته، الرجاء للدنيا يجعل للآخرة منك خطأ، أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفف نزلا لهدأ أهوالها و قد علت النار مشرفة على أهلها، و قد وضع الكتاب و نصب الميزان، و جيئ بالنبيين و الشهداء و يكون لك في ذلك الجمع منزل و زلفى أبعد الدنيا إلى غير الآخرة تنتقل؟، هيهات هيهات كلا والله، ولكن صمت الآذان عن المواعظ و ذهلت القلوب عن المنافع".[24]

و من مواعظه التي يدعو فيها إلى التقرب من الله، و الحذر من البعد عنه قوله: "أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك و رقيبك في علانيتك، فاجعله من بالك على حالك في ليلك و نهارك و خفه بقدر قربه منك، قدرته عليك، واعلم أنك بعينه، ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، فليعلم منه حذرك و ليكثر منه وجلك".[25]

الفضيل بن عياض

[24]- حلية الأليياء، ج8، ص205.

[25]- صفوة الصفوة، ج3،ص 106.

يقص الفضل بن الربيع قصة وعظه مع الرشيد قال: "حج أمير المؤمنين فأتاني فخرجت مسرعا فقلت لو أرسلت إلي أتيتك فقال ويحك قد حك في نفسي شيئ فانظر لي رجلا أسئله، قلت هنا الفضيل بن عياض قال إمض بنا فأتيناه فاذا هو قائم يصلي آية من القرآن يرددها فقال إقرع الباب فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال ما لي لأمير المؤمنين؛ فقلت سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس للمؤمن أن يذل نفسه، فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلى إليه فقال يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل؛ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي؛ فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله؛ فقال إن عمربن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله و محمد كعب القرظي و رجاء بن حيوة فقال لهم إني ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي؛ فقد عد الخلافة بلاء و عددتها أنت و أصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة غدا من عذاب الله (فصم الدنيا و ليكن إفطارك من الموت) و قال له محمد بن كعب القرظي إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا و أوسطهم عندك أخا و أصغرهم عندك ولدا؛ فوقر أباك و أكرم أخاك و

تحنن على ولدك؛ و قال لـه رجـاء بـن حيـوة إن أردت النجـاة غدا من عذاب الله عز و جل فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك و اكره لهم ما تكـره لنفسك ثم مت إذا شئت؛ و إنـي أقول لـك إنـي أخـاف عليك أشد الخوف يوم تـزل فيـه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكـى هـارون بكـاءا شديدا حتى غُشي عليه؛ فقلت له؛ ارفق بأمير المؤمنين، فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت و أصحابك و أرفق به أنا، ثم أفاق؛ فقال له زدني رحمك الله: فقال يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكى إليه فكتب عمر : يـا أخـي أذكـر طـول سـهر أهـل النـار فـي النـار مـع خلـود الأبـد و إيـاك أن يتصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد و انقطـاع الرجـاء؛ قـال فلمـا قـرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم علـى عمـر بـن عبـد العزيـز، فقـال لـه مـا أقدمك قال خلعت قلبى بكتابك لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله عز و جـل، قـال فبكى هارون بكاءا شديدا ثم قال له، زدني رحمك الله، فقال يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبي صـلى الله عليـه وسلم فقال يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إن الإمارة حسرة و ندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل، فبكى هارون بكاءا شديدا و قال له زدني رحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عز و جل عن هذا الخلق يوم القيامـة، فـان استطعت أن تقـي

الوجه من النار فافعل، و إياك أن تصبح و تمسي و في قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي صلى الله عليه و سلم قال من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة؛ فبكى هارون و قال له هل عليك دين قال نعم دين ربي يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني و الويل لي إن ناقشني و الويل لي إن لم ألهم حجتي، قال إنا أعني دين العباد قال إن ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحده و أطيع أمره فقال عز و جل (و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون؛ ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطمعون؛ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فقال له هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك و تقوّ بها على عبادتك؛ فقال سحان الله أنا أدلك على طريق النجاة و أنت تكافئنى بمثل هذا؟ سلمك الله و وفقك، ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين، فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت يا هذا قد ترى ما نحن به من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي و مثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال ندخل فعسى أن يقبل المال؛ فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه

فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله، فانصرفنا".[26]

كان هارون الرشيد قد نزل بـ"رقة" بأبهته السلطانية، و تصادف أن قدم العالم الجليل والمحدث الكبير والزاهد الورع و قد خرجت رعية البلد زرافات و وحدانا لاستقباله و الترحيب به و بلغ الزحام إلى حد أن انكسرت الأحذية و أصبح الرشيد وحيدا منفردا، وكانت جارية للرشيد ترى كل ما جرى و حدث و سألت ما هذا، فأجاب عليها الناس قد قدم عالم تقي من بلاد خراسان اسمه عبد الله بن المبارك، فقالت هذه هي السلطنة الحقيقية لا سلطنة هارون الرشيد لا يحضره الناس إلا بخوف من الشرطة و بطش الضباط.[27]

الإمام أحمد بن حنبل

قد شهد الإمام أحمد بن حنبل زمن الرشيد و المأمون و المعتصم و المتوكل و كان المتوكل واثقا به يجله و يكرمه، ذات مرة قد أهدى إلى الإمام المبلغ الكبير من المال، قد بلغ مقداره إلى حد أن حُمل على ظهر بغل، قال الإمام بما يفيد : أنا لست في حاجة إلى هذا المبلغ، فرد عليه حامل المبلغ لا يحلو لك

[26]- منثورات، ص 51-53
[27]- تاريخ دعوت و عظيمت أردو، الطبعة السابعة، ج 1،ص71.

أن ترد هذا المبلغ، قد انشرح قلب الخليفة بالكاد، سوف ينقلب قلبه كدرا منك سوء الظن بك، فأمر الإمام بإلقائه في زاوية، و أرسل إلى عمه في منتصف الليل، و قال له : لم أستطع أن أنام طول الليل بسبب هذا المبلغ، و أنا متأسف و قلق جدا بقبوله، فقال له العم، هذا منتصف الليل و الناس نائمون، و افعل في الصباح ما بدا لك، في الصباح قد أرسل إلى رجال موثوقين بهم، و طلب منهم إعداد القائمة للفقراء و المساكين، و جعل يقسم بينهم هذا المبلغ إلى أن نفد، حتى الكيس الذي كان فيه المبلغ قد أهداه إلى بعض الفقراء. [28]

قد ألح المتوكل على أن يقيم الإمام بعض الأيام في المعسكر، فأقام، و كان ضيفا على الخليفة في هذه الأيام، وكان يُعد له الطعام الشهي ويُكلف فيه، سعره مائة و عشرون درهم كل يوم، ولم يذق من هذا الطعام قط، و كان يدوم الصوم حتى أمضى ثمانية أيام متوالية وهو صائم، و أصبح نحيفا ضعيفا جدا، لو لم يجد الإجازة على الفور، لكان يخشى على حياته،[29]

الإمام الشافعي

من الأئمة و أعلام المسلمين الذين قدموا التوجيهات للرشيد و وعظوه الإمام الشعافعي الفقيه الورع، فقد دخل يوما على الرشيد يعظه و يحذره من غرور الدنيا و يوصيه بتقوى الله و لزوم طاعته و الاعتصام بحبله، و الحذر من

[28]- تاريخ دعوت و عظيمت أردو، الطبعة السابعة، ج 1،ص92-93.
[29]- تاريخ دعوت و عظيمت أردو، الطبعة السابعة، ج 1،ص93.

مكره و بطشه، قال: "اتق الله في السر و العلانية، تستكمل الطاعة، و اعلم أن الله سبحانه وتعالى يفتش سرك ، فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا و فتق لك ما يزنق عليك، استغن الله و الله غني حميد، و إن وجده موافقا لعلانيتك أحبك و صرف هم الدنيا من قلبك و كفاك مؤونة نظرك لغيرك، و ترك لك نظرك لنفسك، و كان المقوي لسياستك، و لن تطاع إلا بطاعتك لله تعالى، فكن له طائعا تكسب بذلك السلامة، في العاجل و حسن المنقلب في الآجل، و احذر الله حذر عبد علم مكان عدوه و غاب عنه وليه، لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك، فإن ذلك مفسدة لك و ذهاب لدينك و أسقط للمهابة في الأولين و الآخرين، و عليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به، و لن تهلك ما تمسكت به، فاعتصم بالله تجده تجاهك، و عليك بسنة رسول الله تكن على طريقة الذين هداهم الله، فبهداهم اقتده و لا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة، و لا تطع العامة تقربا إليهم بظلم الخاصة لتستديم السلامة، و كن لله كما تحب أن يكون لك أولياؤك من العامة من السمع و الطاعة، فانه ما ولي أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة و يده مغلولة إلى عنقه، لا يفكها إلا عدله، و أنت أعرف بنفسك، فبكى الشيد و علا نحيبه".[30]

و قد أخذ هذا الفن يزدهر في القرن الثالث الهجري و أكثر القول فيه جماعات الزهاد و المتصوفة في أكثر البقاع الإسلامية و سلكوا طريقا غير

---

[30]- حلية الأولياء ج9، ص 89-90.

هذا الطريق في وعظهم و اكتظت بهم المساجد و مجالس الوعظ منهم ذو النون المصري، صالح بن بشير المصري، و منصور بن عمار، و الفضيل بن عياض، و الجنيد سيد الصوفية، وأوجدوا فنونا أخرى عمرت بها كتب الأدب و الطبقات منها فن القصة، و النصائح و الوصايا.

قد اتضح لنا مما تقدم ذكره في باب الزهاد و النساك أن المجون و الشك لم يكن كل شيئ في العصر العباسي كما ادعى الدكتور طه حسين، فوجود الاتجاه الإسلامي في العصر العباسي مسألة طبيعية، لأن أسبابها متواجدة، و دواعيها موجودة، ففي كل أمة من الأمم نجد الصراع محتدما بين الحق و الباطل و عنيفا بين الطريق المعوجة و الطريق المستقيم.

إني لا أزكي العصر العباسي عن الشك و المجون و لا أشك في وجودهما، و لا أقول أنه كان عصر البر و التقوى و لا غير، كما قال الدكتور طه حسين إنه كان عصر الشك و المجون و لا غير و شك في وجود البر و التقوى و الخير، قد اختلطت الأمة الإسلامية بمختلف شعوبها و حضاراتها، و جاء كل شعب بما يحمله من المعتقدات و العادات و الأخلاق، فتغير بذلك وجه الدولة الإسلامية سياسيا و اجتماعيا و عقليا، و تأثرت أمة الإسلام بما

حملته الشعوب المختلفة من معتقدات و ثقافات، و ظهر أثر ذلك على الحياة العباسية بمختلف مظاهرها.

و في الحياة السياسية اقتبس العباسيون أنظمة أجنبية في الإدارة و تنظيم الأعمال وغيرها، وفي الحياة الاجتماعية انتشرت العادات الفارسية في المجتمع العباسي، و تأثر العباسيون بما حملته الشعوب الأخرى من عادات و تقاليد من مأكل و مشرب و ملبس.

أما في الحياة العقلية فقد فتح الباب على مصراعيه للثقافات الفارسية و الهندية و اليونانية، و اتسعت حركة الترجمة، و نقلت أكثر العلوم إلى العربية، فاصطبغ الفكر العربي و الإسلامي بأفكار الشعوب الأخرى وتأثر بما حملته هذه الثقافات المختلفة من علوم و فنون و آداب.

و حاولت بعض العناصر الأجنبية فرض سيطرتها على العباسيين و خاصة العنصر الفارسي الذي برز عدد من رجاله في الشعر والعلم و القيادة، ظهر التنافس الشعوبي على المناصب في الدولة العباسية، و مع هذا الاختلاط الثقافي و التأثر بالعنصر الفارسي في الحياة العباسية كثرت الأموال، انتشر الترف، و مالت الطبقة العليا من الأمة إلى الليونة، و شاع فيها الشراء الفاحش مع ما يتبعه من انحلال خلقي، و ضعف الوازع الديني، و كثرت

الملل المنحرفة، و انتشر الإلحاد، فشت الزندقة و أدمن الناس على شرب الخمر، و شاعت تجارة الرقيق، و أثارت مجالس اللهو و الغناء و القيان كثيرا من الانحلال في مجتمع العباسيين، وكان لذلك التطور الكبير الذي شهدته الحياة العباسية أثرا كبيرا على الحياة الأدبية و الحياة الشعرية بوجه خاص.

و تأثر الشعراء بما كان يجري حولهم في هذه الحياة الصاخبة، فكان من الشعراء من نصب شعره للدفاع عن الأحزاب السياسية، و وجد شعراء آخرون تفرغوا للهو و المجون و وصف مجالس الخمر و الطرب و ما تجري فيها من تهتك و مجاهرة بارتكاب المحرمات وكان للدين الإسلامي و الخلق الكريم أنصار مخلصون، دافعوا عنه، وقفوا يجادلون المغرضين الذين أثاروا شكوكا حول مبادئه و تعاليمه، استمروا يحذرون الناس من الانحلال الخلقي، و يوقظون المنغمسين في نعيم الدنيا من غفلتهم، و أتاح العصر العباسي لهؤلاء جميعا جوا من الحرية الفكرية و الاجتماعية، مما دفع بكثير من المنحرفين إلى المجاهرة بهذا الانحراف المنافي للخلق و الدين.

فما هو موقف الأدب الإسلامي من هذا الصراع؟ و ما هو دور الشعر الإسلامي في الدعوة إلى الدين الحنيف و الخلق الكريم؟.

ولا بد قبل الإجابة على هذه الأسئلة من تصور الأسباب التي خلقت الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي، و كان من أهم هذه الأسباب ضعف العقيدة الدينية و كثرة النيل من الدين الإسلامي الحنيف، و انتشار البدع و الآراء الضالة، و المجاهرة بارتكاب الكبائر في مجالس اللهو و حانات الخمور التي كانت تتعانق فيها الكؤوس، و تصدح فيها أعذب الأنغام.

و انبرى رجال الدين و أهل العقل و الحجا و من ساندهم من الأدباء و الشعراء يدافعون عن العقيدة بكل ما أوتوا من قوة الإقناع و الحجاج و الإرشاد و التوضيح، و إذا كانت مجالس اللهو و الخمر قد عمت أرجاء بغداد، فقد كانت تقابلها مجالس العلم و حلقات الدروس و الإرشاد، و إذا وجدت طبقة من الشعراء المجان كأبي مطيع و والبة و حماد عجرد و غيرهم، فقد وجدت طائفة أخرى تدافع عن الدين و الفضيلة، و تصف معارك الإسلام و تشيد بقادة المسلمين، كما تنعى على المنغمسين في لذائذ الدنيا خسرانهم و ضلالهم، و مثّل هذه الطائفة عدد كبير من الشعراء كأبي تمام و ابن الجهم، و أبي العتاهية، و علي بن جبلة و غيرهم.

ووقف أهل السنة بكل ثبات يدحضون الحجة بالحجة و يقيمون البرهان بعد البرهان و يتصدون لطوائف دينية مختلفة من شيعة و معتزلة و رافضة، و على ذلك فالعصر العباسي الأول شهد صراعا عنيفا بين التدين و الانحراف، وبين المجون و الزهد، وبين الفضيلة و الرذيلة، و كان هذا الصراع الرهيب بين طرفين القديم المتلزم و الجديد المتحرر من كل القيود، و هذا الصراع الرهيب لم تشهد العصور الإسلامية له مثيلا.

و قد ظل الشعر الإسلامي سلاحا من الأسلحة التي وقفت ضد الانحراف و الشك و المجون و الرذيلة، ظل هذا الشعر يحذر من الزندقة و يفضح الزنادقة، و يدعو إلى توحيد الله، و يبين الأدلة القاطعة على وحدانيته و عظمته و استحقاقه للعبادة و الخضوع.

و واجه الشعر الإسلامي طلاب الدنيا و متاعها، و نهاهم عن الاستسلام لمظاهرها البراقة، و دعاهم إلى العمل الذي يبقى ذخرا ليوم عظيم، و سجل الشعر الإسلامي بكل فخر و اعتزاز انتصارات الأمة على أعدائها، و وصف المعارك التي خاضتها جيوش الإسلام ، و أشاد بالخلفاء العظام الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام و رعاية حقوق المسلمين، و اعتز هذا الشعر أيضا بقادة المسلمين الأشاوس، و أثنى على شجاعتهم و ثباتهم في

ميادين القتال، كما رثى لشهدائهم الأبرار الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله، و في سبيل الحق و العدل و السلام.

و لم ينس الشعراء ما للفضيلة والخلق الكريم من دور كبير في سعادة المجتمع و رقيه، فدعوا إلى الفضيلة و الأخلاق الكريمة التي دعا إليها الإسلام و حذروا من الانحدار بالقيم الإنسانية و الفضائل الخلقية و التي بانحلالها يضعف المجتمع و تسوده الفوضى و يسيطر عليه الاضطراب.

و باختصار فقد أدى الشعر الإسلامي دوره الإيجابي في الدفاع عن الدين و الفضيلة و الخلق الكريم، و استطاع هذا الاتجاه أن يصور جانبا من أهم الجوانب التي عاشتها الأمة الإسلامية في عصر من أخصب عصورها تقدما و حضارة وعلما، و النماذج التي مرت بنا في ثنايا البحث دليل كاف على الدور الكبير الذي اصطبغ به الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول.

فهل يصح لنا بعد هذا أن نحكم على العصر العباسي بأنه عصر نفاق و شك و مجون؟، و هل يجوز لنا أن نجعل أبا نواس و أضرابه يمثلون العصر العباسي أو الشعر العباسي؟ هذا سنتناوله بالبحث إنشاء الله.

في حديث الدكتور طه حسين عن العصر العباسي و الشعر العباسي ما يثير العجب و الدهشة ، يدعو إلي الوقوف قليلا عند الآراء التي تبناها و انطلق بمقتضاها ليصدر أحكامه على العصر العباسي و الحياة الأدبية فيه.

و قد حكم الدكتور طه حسين على العصر العباسي بأنه عصر شك و مجون، و رأى أن أبا نواس و زملائه يمثلون هذا العصر أصدق تمثيل، فما هي أقوال الدكتور عن هذه القضية، و على أي أساس أصدر هذه الأحكام؟ هل كانت أحكامه مطابقة للحقيقة و موافقة للواقع؟

يقول الدكتور طه حسين : " أن العصر العباسي عصر انتقال من بداوة إلى حضارة، و من سذاجة إلى تعقيد، و من فطرة خالصة إلى علم و فلسفة، و كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة و شعوب متباينة، منها البدوي و الحضري، و منها الجاهل و العالم، و منها الغني و الفقير، أفتريد أن تختلط هذه الأمم، وتمتزج هذه الشعوب دون أن تضطرب لهذا الاختلاط و الامتزاج أخلاق و عادات ونظم؟ و دون أن ينهار بناء قديم و يقوم بناء جديد؟ أفتريد أن يمتزج العربي و الفارسي و المصري و الرومي، و أن تبقى الأخلاق و العادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب؟ ذلك

الشيئ تستطيع أن تفرضه في الخيال، أما في الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل".[31]

هذه مقدمة طويلة خرج منها الدكتور طه حسين بأن الاختلاط في العصر العباسي كان له أثر بعيد في الحياة العباسية، و هذه حقيقة مسلم بها، و لا يستطيع أحد أن ينكر الآثار الكبيرة التي نتجت عن هذا الاختلاط، و على أساس هذا الاختلاط، و ما تبعه من تطور و تغيير في الحياة العباسية بنى الدكتور طه حسين أحكامه على العصر العباسي، و أصدر أحكامه على الشعراء و الحياة الشعرية في هذا العصر.

نحن نسلم بأن الاختلاط في العصر العباسي كانت له آثاره البعيدة و كانت نتائج هذا الاختلاط خطيرة على جوانب الحياة المختلفة، لكن هل معنى هذا أن العصر العباسي نبذ القديم؟ هل تخلى عن عقيدته و أخلاقه، وتقاليده، هل تغيرت الحياة العباسية رأسا على عقب لا يرتبط بالماضى؟ هل انمحت العقيدة السليمة و الأخلاق الفاضلة بسبب الاختلاط.

[31]- حديث الأربعاء، ج 2، ص 69.

الإجابة على هذه الأسئلة جميعا: لا، لأنه لا يمكن تصور انقلاب الحياة و تغيرها فجأة و ذهاب الأخلاق و العقيدة بالمرة، فالتطور واقع، و التغير أكيد، و لكن في الحدود.

عندما نتذكر الشعر العباسي تتبادر إلى أذهاننا صورة أبي نواس و مطيع و غيرهما و تترسم في مخيلتنا صورة لهوهم و مجونهم وغزلهم الشاذ و المكشوف و يخيل للباحث أن هؤلاء هم صورة العصر و هم الطبقة التي تمثل الحياة الشعرية على أقل تقدير، و بعد بحث و تدقيق يتضح لنا خلاف ذلك، يتضح لنا الجد و التدين، يتضح لنا أن هناك اتجاها إسلاميا بجانب هذه الاتجاهات المنحرفة، و لكن العناية بالاتجاه الإسلامي معدومة، و الدراسة بهذا النوع من الشعر قليلة، مما يجعل أكثر الناس يرسم صورة خاطئة للشعر العباسي في خياله.

يقول الدكتور طه حسين عن العصر العباسي: " كان هذا العصر عصر شك و مجون، و كان عصر رياء و نفاق، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان: أحدهما للعامة و الجمهور، و هو مظهر الجد و التقوى، و الآخر للخاصة و لأنفسهم، و هو مظهر اللهو والمجون"،[32] و يواصل حديثه عن

[32]- حديث الأربعاء، ج2، ص 36.

الخلفاء العباسيين فيقول: " و لعلك تذكر ما يروى عن الخلفاء أنفسهم، و ما كانوا يمعنون من لهو و لعب، دون أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا بمظهر الأئمة الأتقياء و لقد آن لنا أن لا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد و أمثال الرشيد"[33].

بعد اتهامه للعصر العباسي كله، و اتهامه للخلفاء، يمضي ليثبت لنا تمثيل أبي نواس للعصر العباسي فيقول: " أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة و نعيم الحياة، فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق و مرآتهم الصافية؟ كلا! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، و تجعل هؤلاء الشعراء تراجم صادقين لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر، و ما يضطرب في نفوسها من عواطف"[34].

ثم ينفي الدكتور طه حسين دور رجال الدين في الحياة و أنهم لا يمثلون أحدا فيقول: " كان الفقهاء و المتكلمون و رواة الحديث عاكفين على الفقه

[33]- حديث الأربعاء، ج2، ص 36.
[34]-حديث الأربعاء، ج2، ص 35.

يستنبطونه، و على الحديث يروونه، و كانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد، و لا يعبرون عن رأي أحد، و لا يمثلون إلا العلم الذي يعنون به"[35].

و أخيرا يسدل ستارا من الشك على ورع العلماء و زهد الأتقياء و الصالحين و يقول: " بل و ربما يجب علينا أن نشك بعض الشك حين نذكر ورع هؤلاء العلماء و إمعانهم في البر و التقوى، و لعلك تذكر ما يروى من أخبار يحى بن أكثم الذي كان قاضيا للمأمون، و لعلك تذكر ما يروى من أخبار أبي عبيدة معمر بن المثنى و ما كان بينه و بين الشعراء".[36]

وعلى هذا فشعراء المجون هم الذين يمثلون العصر العباسي، يقول الدكتور طه حسين: و إذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك، و يعلنون المجون أصدق لهجة و أصح تمثيلا للعصر الذي كان يعيشون فيه من العلماء و الخلفاء و الوزراء و كبار الدولة".[37]

و أبو نواس هو شاعر المجون الأول في العصر العباسي، فهو الذي يمثل هذا العصر كما يقول ذلك الدكتور طه حسين: " إذا أردنا يختصر العصر و

---

[35]--حديث الأربعاء، ج2، ص 35.
[36]- حديث الأربعاء، ج2، ص 36.
[37]- حديث الأربعاء، ج2، ص 36.

يشخصه، فهذا المثال هو أبو نواس الذي سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله"[38].

و ليس أبو نواس وحده هو الذي يمثل العصر العباسي، بل قصيدة واحدة من قصائده كافية لتمثيل العصر العباسي كله في رأي الدكتور طه حسين، واستمع إليه يقول: " على أننا نستطيع صورة واضحة من هذا العصر إذا روينا لك قصيدة من شعر أبي نواس و التي مطلعها:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء و داويني بالتي كانت هي الداء

فانظر هذه القصيدة على قصرها، كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقا" [39].

هذه القصيدة الشعرية تمثل الحياة الشعرية في بغداد " إن هذه القصيدة تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس تمثيلا مجملا"[40].

تلك هي أقوال الدكتور طه حسين عن العصر العباسي و شعرائه وعلمائه و خلفائه، و قبل البدء في مناقشة هذه الأقوال نضع حقيقة لا يمكن أن ينكرها من يقرأ أقوال الدكتور طه حسين السابقة، و هذه الحقيقة أن الدكتور شك في الخلفاء و الوزراء و الشعراء و العلماء و الأتقياء، بل شك في العصر

---

[38]- حديث الأربعاء، ج2، ص 36.
[39]- حديث الأربعاء، ج2، ص25،26.
[40]- حديث الأربعاء، ج2، ص21،26.

العباسي كله، و من يقرأ هذه الأقوال يتخيل أن العصر العباسي يخلو من الدين و اليقين و الخلق، و على هذا من هم الذين تمسكوا بالدين في نظره؟ من هم الذين دافعوا عن الإسلام و الفضيلة؟ من هم الذين ألفوا الفقه و الحديث و علوم الدين؟ هؤلاء جميعا لا وجود لهم في نظره لأن العصر العباسي عصر شك و نفاق و رياء و مجون كما يقول، بقي شيئ واحد لم ينله شك الدكتور طه حسين و هو هل كان الإسلام موجودا في العصر العباسي؟.

بعد إثبات هذا الشك العام الذي رمى به الدكتور طه حسين العصر العباسي نتحول إلى مناقشة هذه الأقوال بالتفاصيل و نسأل الله التوفيق بالمعرفة على الحقيقة و الوصول إلى الصواب.

أما عن اختلاط العرب بغيرهم، في العصر العباسي، ما نتج عن هذا الاختلاط من آثار بعيدة في الأخلاق و العادات و النظم فهذا أمر مسلم به، لأن مثل هذا الاختلاط لا بد أن تعقبه آثار مختلفة على أي أمة من الأمم، و قد ظهرت آثار هذا الاختلاط في كل مظهر من مظاهر الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية و سبق تفصيل هذه الآثار في الحديث عن الحياة العباسية.

اتهام العصر العباسي كله بالشك و المجون أمر فيه نظر، فإذا كان المقصود أن المجون و الشك عما في هذا العصر، ونشأت طبقة من الناس تعيش حياة الشك و المجون فهذا أمر معروف و ثابت و أما إذا كان المقصود بهذا الشك و المجون أن كل طبقة من الطبقات دخلها الشك و عاشت حياة المجون فهذا ليس بصحيح، لأن العقل لا يتصور أمة من الأمم تعيش بكامل أفرادها في شك و مجون لو حدث ذلك في عصر من العصور فهو أبعد ما يكون في العصر العباسي، و يكفينا دليلا على حياة الجد و العلم و التدين التي كان العباسيون يعيشونها تلك المؤلفات الضخمة في علوم الدين من فقه و حديث و تفسير زيادة على العلوم اللغوية و التاريخ و غيرها.

فهل من الممكن أن يخلف لنا العصر العباسي تلك الثروة الفكرية الهائلة و هو يعيش في شك و مجون و نفاق و رياء، بل أن العصر العباسي الأول يعد مفخرة من مفاخر التاريخ الإسلامي و درة في جبين حضارة الإسلامية المجيدة.

اتهام الخلفاء العباسيين باللهو والمجون أمر خارج عن نطاق بحثنا، لكنه يتصل به اتصالا غير مباشر، فالخلفاء العباسيون طبقة من طبقات المجتمع

لأخلاقها و عقيدتها دور كبير في أخلاق بقية الطبقات و عقائدهم، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون.

يتهم الدكتور طه حسين الخلفاء باللهو والمجون، و أنهم كانوا يظهرون بمظهرين أحدهما للعامة وهو مظهر الجد و التقوى، و الثاني للخاصة و لأنفسهم و هو مظهر اللهو والمجون، و يركز على الرشيد و المأمون باعتبارهما أعظم الخلفاء العباسيين، و يعارض ابن خلدون في تنزيهه للرشيد عن العيوب، و يقول إن ابن خلدون كان يخدع نفسه.

مما لا شك فيه أن الخلفاء كغيرهم من الناس، كلهم معرضون للخطأ و الانحراف، ليس منهم المعصوم عن الزلل و ارتكاب الآثام، و لكن ما رواه التاريخ عن هؤلاء هو الدليل على تدينهم و أخلاقهم الفاضلة، و لا نستطيع هنا أن ننفي اللهو و المجون عن الرشيد و المأمون نفيا قاطعا، و لا يمكن أن ننزه الخلفاء عن الآثام و الرذائل لأنهم خلفاء، و إذا كانوا قد وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة فهذا لا يجعلهم المعصومين عن الزلل ولا منزهين عن الصغائر، و لكن الحقائق التاريخية هي الحكم في ذلك و قد روي عن أغلب الخلفاء العباسيين التدين و تشجيع العلماء، و كان أكثرهم يتمتع بأخلاق إسلامية عالية، وجهاد الدولة الإسلامية ضد أعدائها دليل على حرص

خلفائها و ما خلفه العصر كله من علم و دين دليل على صلاح الخلفاء و ورعهم، و قد تستفزهم الشهوات فيلبون ندائها، و لكن إلى حين، فإيمانهم القوي أقوى من كل شهوة، و إذا أثر عن بعضهم شرب الخمر فقد أثر عنهم جميعا حب الدين و تشجيعه و العمل على نشره، و إذا وجدت نقطة سوداء في وسط تاريخ مشرق فلا يضره هذا، و كفي بالمرء نبلا أن تعد معايبه.

و العصر العباسي لا يمكن أن يمثله أبو نواس بحال من الأحوال، و ما قاله الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع يحتاج إلى مناقشة و تمحيص، فهل من الممكن أن نجعل شخصا واحدا يمثل العصر كاملا؟ هل وجدت جميع مظاهر الحياة العباسية في أبي نواس؟ هل وجد زهد الزهاد؟ و هل وجد ورع العلماء؟ بل هل كان أبو نواس يمثل الزنادقة و الملحدين؟ طبعا لا، لا يمكن أن تجتمع هذه المظاهر في شخص أبي نواس، و كيف يجتمع النقيضان؟ الزهد و المجون و التدين و الانحراف، حتى لو وجدت أكثر الميول و الأهواء عند أبي نواس فهل كانت هذه الميول تمثل النسبة في طبقات الأمة كما هي عند أبي نواس ؟ لقد كان الشاعر ماجنا مستهترا فهل كان العصر العباسي و أفراده مثل أبي نواس في مجونه؟ كان أبو نواس يميل إلى الغلمان، فهل كان هذا الشذوذ موجودا في الناس كلهم؟ الإجابة على هذه الأسئلة بالنفي، كيف لنا أن نجعله يمثل العصر العباسي مع أن

الواقع ينكر هذا كل الإنكار، صحيح أن المجتمع العباسي مجتمع انتشر فيه الشك و فشا فيه المجون، و لكن في طبقة خاصة هي طبقة الوزراء و القواد و من حولهم من الشعراء و المغنين، أما عامة الشعب فلا تعرف الشك و المجون، و كانت تعيش حياة الإيمان و العفة و التقى، و إذا قرأنا في دواوين هؤلاء المجان أوصاف الخمر و ندمائها و سقاتها، و قرأنا الغزل المكشوف الشاذ، فيجب أن نقرأ ملاحم البطولة الإسلامية في دواوين شعراء آخرين، و يجب أن نقرأ ما قيل في الحث على الأخلاق الكريمة، و ما قيل في التحذير من مفاتن الدنيا، و يجب أن لا ننسى دفاع الشعراء عن مبادئ الإسلام، و لا ننسى تلك الالهيات الرائعة في مناجاة رب العالمين. إذا كان الشك و المجون قد فشا في طبقة من الطبقات فإن التدين و الالتزام تدين بهما أكثر الأمة، أن هؤلا المجان كأبي نواس و أضرابه لا يمثلون إلا الاستسلام لشهوات النفس والانحراف الخلقي الذي وجد في العصر العباسي و هؤلاء لا يمثلون الدين و الوقار والورع.

إن هؤلاء الذين جعلهم الدكتور طه حسين يمثلون العصر العباسي، لا يمثلون في الحقيقة سوى اتجاه منحرف من الاتجاهات سببها الاختلاط بين العرب و غيرهم، هؤلاء يمثلون المجون فحسب، و يمثلون التهتك و المجاهرة ليس غير، انهم يمثلون الطبقة الأرستقراطية التي دفعها الترف و

الثراء إلى تلبية شهوات النفس الحيوانية، و نسيان مطالبها الروحية، فانغمس هؤلاء في نعيم الدنيا الزائل، و تناسوا الدار الآخرة و طاعة الله.

ما دام هؤلاء المجان لا يمثلون سوى طبقة قليلة في عددها من طبقات الأمة فمن يمثل بقية الطبقات؟ ومن يمثل طبقات الزهاد و العلماء و الأتقياء و أصحاب النفوس النقية، لو حاول باحث أن يقارن بين نسبة المجون والتدين في العصر العباسي لوجد أن البون شاسع بين النسبتين، لأن نسبة المجون تقتصرعلى نفر من الشعراء و المغنين و المغنيات و من ضمهم من الوزراء و كبار رجال الدولة. أما بقية الأمة فتكون النسبة الكبرى، و هي نسبة التدين، و لا شك أن رقعة المجون في العصر العباسي قد كبرت، ووضع من الحبة قبة، وعكس ذلك صغرت رقعة التدين و تجاهلها كثير من الدارسين، ظنا منهم أن هذا المجون منتشر في كل الطبقات.

وكون الخلفاء يظهرون بمظهرين مختلفين أحدهما ماجن و الآخر متدين، فهذا دليل على أن الرأي العام العباسي متدين ينظر إلى خليفته نظرة دينية يجعله حامي الدين و الوطن، و إلا فلماذا ينافق الخلفاء إذا كان العصر كله عصر شك و مجون؟

ولو وافقنا مع الدكتور طه حسين على تمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره لوجب علينا أن نبعد الزهد و الملاحم الإسلامية و الدفاع عن الإسلام عن الحياة الشعرية في هذا العصر و وجب أيضا أن نجعل الخمريات و المجون والغزل المكشوف هي الشعر العباسي كله، و هذا أمر لا يقر به باحث يتحرى الإنصاف و يهتم بالشمول و الاستقصاء.

فمجمل القول في هذه القضية أن الدكتور طه حسين بالغ مبالغة شديدة في تصوير المجون والشك الذي حدث في العصر العباسي، حتى وصم العصر كله بهذا المجون، ثم نقصه الشمول و الاستقصاء حينما حكم بتمثيل أبي نواس لعصره و بالغ في هذا التمثيل حتى جعل قصيدة واحدة تمثل الحياة الشعرية كلها، يبدو أنه تجاهل التدين و الزهد، و تجاهل الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام كما تجاهل تلك المجلدات الدينية الضخمة التي ألفت في عصر الشك و المجون كما يقول.

الخاتمة

الحمد لله قد وصلت إلى نهاية المطاف لهذا البحث و أثني على الله سبحانه و تعالى بأنه وفقني لإتمامه، و قد اتضح مما كتبت بأن العصر العباسي كان مزيجا من الخير و الشر، لم يكن العصر كله خيرا، و لم يكن كله شرا، بل كان فيه أشتات من الناس، و ألوان من العادات والتقاليد و الثقافات، لكن هناك بعض الكتاب و الباحثين بما فيهم الدكتور طه حسين حاولوا أن يصبغوا العصر العباسي – وهو زهرة العصور الإسلامية- بصبغة خاصة و لون خاص يخدم أغراضهم الهدامة من تشويه تاريخ الأمة العربية بالخصوص و الأمة الإسلامية بالعموم لقد حاول الدكتور طه حسين أن يفاجئ الناس بما لا يعهدون، و المفاجأة لا تتم إلا بذكر الأحكام الغريبة و الآراء اللافتة للأنظار بخطورتها، و عندما قصد الباحث أن يلفت القارئ بضجة قارعة، فلا يهمه أن يصل إلى الحق قدر ما يهمه أن يثير الصخب، و هذا ما كان من أمر الدكتور طه حسين في مبدأ ظهوره الأدبي فقد حلا له أن يتحدث من أزاهر عهود التقدم الحضاري في تاريخ العرب حديث من يدمغ هذا العصر بالتحلل و المجون، و قد سمى الأشخال تسمية من يريد أن يشتهر بأقطاب الخلافة و رجال الحكم و من ورائهم الرعية و السواد من الناس، لأن الرأس إذا فسد فسد الجسد كله، و كانت وسيلته إلى ذلك قصائد المبتذلين من الشعراء كأبي نواس و بشار و من يلف لفهما من شعراء المجون،

إذا كانت دواوين هؤلاء طافحة بالغي و أفانين اللهو، هذا هو الدليل على انحدار المجتمع بأجمعه في هوة الخلاعة و الفحش.

و يدعي الدكتور طه حسين أن الشعراء الماجنين يقدمون الصورة الصادقة للعصر العباسي و يمثلون الجماعة حقا أكثر بكثير من الفقهاء و المحدثين و يعبرون عن أهوائها و ميولها و يصفون ما يضطرب فيهم من ضروب الحياة.

إنني حاولت في هذه الأطروحة أن تتجلى الحقيقة سافرة، بعدما قدمت رصيدا كبيرا عن حياته و دراسته شرعت في ذكر البيئة السامة الذي أخذ منها الدكتور طه حسين نصيبا كبيرا عندما استقر في فرنسا وتردد إلى الأساتذة المستشرقين ونهل من منهلهم الكدر المسموم، و انتهج منهجهم و حاكى أسلوبهم محاكاة القرد، و أصبح سلاحا فاتكا في يدهم ضد الإسلام و المسلمين، و ذكرت كيف وجد الدكتور عناية كبيرة وترحيبا حارا وحفاوة بالغة من المستشرقين حينما فصل عن وظيفته، هذا لم يكن إلا لأنه كان يخدم أغراضهم و أهدافهم و بالخصوص حينما تربع على عرش الوزارة، و لم يكن يقف الدكتور طه حسين إلى هذا الحد بل تجاوزت إساءته إلى القرآن الكريم الذي -لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه- حينما يقول: على الكاتب أن يتصرف في القرآن كما يتصرف في الكتب الأدبية الأخرى، و إلى التاريخ الإسلامي، حينما يقول : أن إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام لا وجود لهما فى الكتب التاريخية و لذلك لا وجود لهما في الواقع، و

ذكرت في هذه الأطروحة أيضا كيف الدكتور يتنازل عن منهجه و هو منهج الشك، إنه يشك في وجود الخير و لا يشك في وجود الشر، يشك في وجود زهديات أبي نواس و لا يشك في وجود مجون أبي نواس، و لا يضيع فرصة إلا يشك في سلوك الصحابة رضوان الله عليهم حينما يقول : بأن سعد بن عبادة لم يقتله الجن بل قتلته السياسة.

قد قمت بتفنيد آراء الدكتور طه حسين مستعينا بكتب العباقرة من أمثال الأستاذ أنور الجندي، و الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، و الأستاذ عبد الرحمان شكري، و الأستاذ علي الطنطاوي، و الأستاذ رفيق العظم، هؤلاء كلهم ردوا على الدكتور طه حسين ردا منطقيا مفحما.

المصادر والمراجع

1 القرآن الكريم

2 إبـــراهيم عبـــد القـــادر المازني "قـبض الـريح" دار الشـعب-92، شـارع قصر العيني، بالقاهرة-1971م.

3 ابـن خلكـان أبـو العبـاس شمس الدين "وفيـات الأعيـان" تحقيـق محمـد محـي الدين، مكتبة النهضة، سنة 1948م.

4 أبـــو الحســـن علـــي الحسني الندوي "تـــاريخ دعـــوت و عظيمـــت" أردو، الطبعـــة الســـابعة، مجلـــس تحقيقـــات و نشـريات إسـلام لكنـاؤ، الطبعـة الخامسـة، 1996م.

5 ابـن الأثيـر أبـو الحسـن علـي محمـد بـن عبـد الكريم الشيباني "الكامـل فـي التـاريخ" طبعـة القـاهرة، 1357هـ.

6 ابن عبد ربه، أحمد بن "العقـد الفريـد" لجنـة التـأليف و الترجمـة

و النشر 1942م.

محمد ابن عبد ربه

7 أحمد أمين الدكتور "ضحى الإسلام" مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة 1956م.

8 أحمد أمين الدكتور "فجر الإسلام" لجنة التأليف والترجمة و النشر، الطبعة العاشرة- 1965م.

9 أحمد عثمان الدكتور ":في الشعر الجاهلي واللغة العربية" مكتبة الشرق، الطبعة الأولى، أغسطس، 1997م.

10 أحمد فريد الرفاعي "عصر المأمون" طبعة دار الكتب المصرية، 1927م.

12 الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله "حلية الأولياء و طبقات الأصفياء" الطبعة الأولى، 1938م.

13 أنور الجندي "كتاب العصر تحت ضوء الإسلام" دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، الإدارة: القاهرة، 23 شارع محمد يوسف القاضي، سنة الطباعة 1997م.

14 أنور الجندي "طه حسين حياته و فكره في ميزان الإسلام" الناشر: دار الاعتصام، الطبعة الثانية، سنة الطباعة لم تذكر.

15 جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمان علي بن محمد الجوزي صفوة الصفوة، طبعة حيدرآباد، الطبعة الأولى، 1355هـ.

16 حنا الفاخوري "الجامع في تاريخ الأدب العربي" الأدب الحديث، الطبعة الأولى، 1986م، دار الجيل- بيروت.

17 خفاجي محمد عبد المنعم "الحياة الأدبية في العصر العباسي" الطبعة

الأولى، مصر، 1954هـ.

18 الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان "ميزان الاعتدال" تحقيق علي البيجاوي، طبعة الحلبي، سنة الطباعة لم تذكر.

19 رشدي حسن جار الله "المعتزلة" مطبعة مصر، 1947م.

20 رفيق العظم "أشهر مشاهير الإسلام في الحروب و السياسة" دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، 1972-1973م،

21 سفير بن خلف بن معتب بن سعد القثامي "شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثالث" المملكة العربية السعودية، مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رقم الإصدار103. الطبعة الأولى 1429هـ.

22 سيد بن حسين العفاني "أعلام و أقزام في ميزان الإسلام"

الناشـــر: دار ماجـــد عســـيري للنشـــر و التوزيع، سنة الطباعة لم تذكر.

23 شوقي ضيف "الأدب العربـــي المعاصـــر فـــي مصـــر" الطبعـــة العاشـــرة، مكتبـــة الدراســـات الأدبيـة، دار المعـارف، سـنة الطباعـة لـم تذكر.

24 شوقي ضيف "تـــاريخ الأدب العربـــي العصـــر العباســـي الأول" الطبعـــة السادســـة، دار المعـــارف، سنة الطباعة لم تذكر.

25 شوقي ضيف الفـــن و مذاهبـــه فـــي الشـــعر العربـــي، الطبعـــة العاشـــرة، الناشـــر: دار المعـــارف كـورنيش النيـل، القـاهرة، سـنة الطباعـة لم تذكر.

26 شوقي ضيف فـــي النقـــد الأدبـــي، الطبعـــة التاســـعة، الناشـــر: دار المعـــارف كـــورنيش النيـــل،

القاهرة، سنة الطباعة لم تذكر.

27 الشهرستاني محمد عبد الكريم "الملل و النحل" تحقيق محمد فتح الله بدران، طبعة الأزهر، الطبعة الأولى 1951م.

28 الطبري محمد بن جرير "تاريخ الأمم و الملوك" تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، سنة الطباعة لم تذكر.

29 طه حسين الدكتور "حديث الأربعاء" بأجزائه الثلاثة، الطبعة الرابعة عشر، دار المعارف، سنة الطباعة لم تذكر.

30 طه إبراهيم " تاريخ النقد الأدبي عند العرب من الأدب الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري" دار الحكمة- بيروت – لبنان، سنة الطباعة لم تذكر.

31 عبد العزيز محمد "الأدب العربي و تاريخه" الجامعة

الفيصل الإسلامية المدينة المنورة، سنة الطباعة لم تذكر.

32 عمر فروخ "تارخ الأدب العربي الأعصر العباسية" دار العلم للملايين، سنة الطباعة لم تذكر.

33 علي الطنطاوي "فصول في الثقافة و الأدب" دار المنارة للنشر و التوزيع، المملكة العربية السعودية جدة، الطبعة الأولي 2007م.

34 محمد رابع الحسني الندوي "منثورات" مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكناو، الطبعة الثانية، 1966م.

35 محمود مهدي الإستانبولي "طه حسين في ميزان العلماء و الأدباء" المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1404هـ، 1983م.

36 المسعودي أبو الحسن "مروج الذهب و معادن الجوهر" طبعة

	علـــي ابـــن الحســـين المسعودي	دار التحرير، القاهرة، 1966م.
37	مسلم بـن قتيبـة أبـو عبـد الله محمـد بـن مسـلم بـن قتيبة	"عيـون الأخبـار" دار الكتـب المصـرية، 1928م.
38	مصـطفى عبـد الـرزاق، عبـاس محمـود العقـاد، عبـد الرحمـان شـكري وغيرهم	"أبـو نـواس حياتـه وشـعره" المكتبـة الحـديث للطباعـة و النشـر، سـنة الطباعـة لم تذكر.
39	مصـــــطفى صـــــادق الرافعي	"تحـت رأيـة القـرآن" المعركـة بـين القـديم و الجديـد، المكتبـة العصـرية، صـيدا، بيروت، 1423هـ، 2002م.
40	نيكلسون	"التصـوف الإسـلامي وتاريخـه" ترجمـة أبـو العـلا العفيفـي، لجنـة التـأليف و الترجمة والنشر، 1957م.

42 يــاقوت الحمــوي شــهاب الدين "معجم البلدان" طبعة بيروت 1955م.

الصحف والجرائد

44	صحيفة "الفتح" صحيفة إسلامية علمية أخلاقية	تصدر من القاهرة بمصر،العدد 6، الخميس،12 محرم سنة 1345هـ 22 يوليو سنة 1926م (السنة الأولي)
45	جريدة " العرب الثقافي"	تصدر من القاهرة بمصر، الخميس، 2007/09/27.

المحتويات

المقدمة 6-1

الباب الأول: طه حسين حياته و أعماله. 25-7

الفصل الأول: حياته و دراسته. 17-8

الفصل الثاني: خدماته الأدبية و الصحفية. 22-18

الفصل الثالث: المناصب و جائزة النيل. 25-23

الباب الثاني: طه حسين و علاقته مع المستشرقين. 59-26

الفصل الأول: طه حسين و بعض اعتراضاته حول الأدب العربي و الاسلام. 47-27

الفصل الثاني: طه حسين ومنهجه للنقد. 51-48

الفصل الثالث: أسلوب الكاتب و القيمة الأدبية للكتاب "حديث الأربعاء". 59-52

الباب الثالث: الحياة الاجتماعية في العصر العباسي. 114-60

الفصل الأول: الشؤون الدينية و الاجتماعية بين طبقات الناس. 71-61

الفصل الثاني: العصر العباسي كما نجده في " حديث الأربعاء". 78-72

الفصل الثالث: الوعاظ والزهاد في قصور الخلفاء و مجالسهم. 114-79

الخاتمة. 117-115

المصادر و المراجع. 127-118

المحتويات. 128